كتاب الشهر 8 سلسلة شراع





في اللغة والأدب

من أجل مجتمع مغربي قارئ

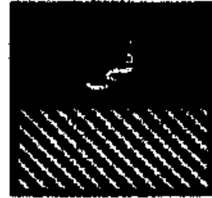
10 دراهم

عبد الله گنون

من اجل مجتمع مغربي قارئ

« يبدو حـتى الآن ، أن الأجهزة المسؤولة في الدولة ، لا تعـير أدنى إهتمام للمبادرات الإعلامية والثقافية الهادفة . »

« شراع المعرفة .. »



صبر نواصل رحلاتنا الشهرية إلى آلاف القراء من مختلف جهات المغرب ، يتكاثر عددهم مع توالي إصدارات هذه السلسة بانتظام ..

وأكثر ما يشغلنا حاليا ، كيف نستطيع تحت ضغط الوقت و (ضغط الحاجة) ، أن نوفق بين عمل مرهق لإعداد « كتاب الشهر » ، وبين التفرغ الكامل لقراءة عشرات الرسائل المشجعة ، يجب الرد عليها لأهميتها ..؟

بعض هذه الرسائل ، تتضمن إنتاجا فكرياً جديداً لمؤلفين أكفاء ، وبعضها تقترح التطوع والمساهمة في مشروعنا الحالم : « من أجل مجتمع مغربي قارئ » ، وتستعجلنا لنشر قسيمة الإشتراك السنوي في أعدادنا الشهرية القادمة ، وتحيينا بحرارة على (صمود الشراع) ..

- ... بعد ثمانية أشهر في التجذيف (ضد التيار) .. !!

ونلتمس عذر القراء المراسلين إذا اكتفينا الآن بردود قصيرة على مضمون رسائلهم :

● حول الإنتاج الفكري الجديد ، فإننا نرحب به ، ونحيله فوراً على لجنة القراءة التي تبث في شأنه ، حسب معايير ثقافية وإعلامية محددة ، من أهمها : تنوع مادة الكتاب المقترح ، وتنوع أسماء المؤلفين دون (فوارق جيلية) ، مع مراعاة جودة الأسلوب ، والتمييز بين ما هو مفيد للقراءة العامة ، وما هو أكاديمي أو تقريري ..

- ... إضافة إلى أننا سنحرص على نشر الدراسات الجريئة في شتى قضايانا السياسية والإجتماعية والإقتصادية ..

● وحول حماس القراء لمشروع « كتاب الشهر

المغربي » ، وفتح حساب خاص بالإشتراك السنوي ، لعله يخفف مؤقتا من ضغوط نفقات النشر والتوزيع ، فإننا نقدر هذه المشاعر الطيبة ، وإن كنا ، في « وكالة شراع » ، نخشى من عواقب المجازفة بمصداقيتنا الإعلامية كأكبر رصيد شعبي نعتز به ..

ولنكون في مستوى (الثقة المتبادلة) ، نفضل التريث قليلا ، وإتاحة الفرصة أولاً لوضع (إقتراح الإشتراك السنوي) في إطاره القانوني والإداري ، حتى تسير الأمور في المجرى الصحيح والسليم ، دون توقع إلتباسات طارئة ، قد تضر بعلاقات الإتصال مع فئات واعية من الرأي العام الوطني ..

ـ ... على أي حال ، قبل بداية السنة القادمة ، سيكون هذا الموضوع منتهيا ، وقد إستوفى جميع شروطه الخدماتية .

● وحول تطوع القراء وإسهامهم الفاعل في ترجمة مدلول شعارنا الإعلامي « من أجل مجتمع مغربي قارئ » ، إلى حقيقة ماثلة وواقع ملموس ، فإننا في وكالتنا الصغيرة ، لم نكن نتصور هذا التجاوب الرائع مع (ثقافة الإعلام)، منذ صدور العدد الأول من « كتاب الشهر » ..

ولا يجب إلا تقدير هذه الروح العالية بين (القراء المتعلمين) .. إنه لولا هذه المساندة الواسعة ، ربما كان لهذا (الشراع) مصير آخر .. لا يسر ..

وما علينا إلا أن نستمر في مساعينا المشتركة ، « من أجل خلق مجتمع مغربي قارئ » .. وإن كان يبدو حتى الآن ، أن الأجهزة المسؤولة في الدولة ، لا تعير أدنى إهتمام للمبادرات الإعلامية والثقافية الهادفة ..

ـ ... ولا يهمها أن تتحسن معدلات القراءة في المغرب .. !!

إجمالاً ، فإن حماس القراء ، وإلتفافهم حولنا ، من أكبر الحوافز على مواصلة رحلاتنا في (شراع المعرفة) ..

ـ ... شراع النور والأمل لكل المتعلمين المغاربة ، الغيورين على ثقافتهم الوطنية ..

وللجميع تحية وفاء متبادلة .. ●

*خالد مشبال

في اللغة والأدب

بقلم

عبد الله كنون



لوحة الغلاف :

أحمد بن يسف

كتاب الشهر 8 سلسلة شراع

« توهم حضرته أن آجروم بلد ، وهو في الحقيقة إسم بربري لجد مؤلف الآجرومية محمد بن داود آجروم . »

إشكالية معجمية

قرأت

في الجزء الثالث من المجلد السابع والثلاثين من مجلة مجمعنا الراقية ، مجلة المجمع العربي بدمشق ، نقدا علميا لكتاب القومية الفصحى ، للدكتور عمر فروخ ، بقلم الأستاذ : محمود الملاح ، استوقف نظري كلامه على بيت امرئ القيس الشهير .

كَأَنَّ أَبَانا في أَفانينِ وَدْقِه
كَبِيرُ أُناسٍ في بِجَادٍ مُزَمَّلِ

أو في عرانين وبله كما رواه الأستاذ ، والأمر يتعلق بجر

مـزمل الذي جـعله الأسـتـاذ من قـبـيل الضـرورة لملاءمـة القـافـيـة ، وشبـهـه بما وقع للنابغـة في داليـته المعـروفـة من قوله :

زَعَمَ الغُدافُ* بِأَنَّ رِحلَتَنا غَـداً
وَبِذاكَ خَبَّرَنا الغُرابُ الأَسوَدُ

أو زعم البوارح كما رواها الأستاذ .

والأمر على ما يظهر فيه تفصيل ، فالمسألة الأولى ذكرها النحاة ، ومنهم سيبويه ، وخرجوا الجر فيها على وجه له حظ من النظر وهو المجاورة لبجاد ، ومثله ما روي من قول العـرب : هذا جـحـر ضب خـرب بجـر خـرب ، ومنه قـول الأخـطـل :

جَزَى اللهُ عَنِّي الأَعوَرَينِ مـلامة
وفروة ثغر الثورة المتضاجم

واشـتـهـرت مـسـألة جر مـزمل حـتى ضـرب الأدباء بـهـا المـثـل ، فقال بعضـهم :

عَلَيكَ بِأَربابِ الصُّدورِ فَمَن غَدا
مُضافًا لِأَربابِ الصُّدورِ تَصَدَّرا

---

* الغداف بوزن الغراب ومعناه ، وهذا البيت من قصيدة للنابغة يمدح النعمـان ابن وائل ، وفـيـه إقـواء ، و الإقـواء هو مخـالفـة حـركـة القافية ، إذ القافية بالخفض وهذا البيت بالرفع .

وإياك أنْ ترْضَى بِصُحْبَةِ نَاقِصٍ
فتَنْحَطَّ قَدْراً مِنْ عُلَاكَ وَتُحْقَرَا

فَرَفْعُ (أبُو مَنْ) ثُمَّ خَفْضُ (مُزَمِّلِ)
يُبَيِّنُ قَوْلِي مُغْرِيًا وَمُحَذِّرًا

أشار إلى رفع الأب في مثل (عرفت أبومن زيد) لمصاحبته لمن الإستفهامية ، وهي من أدوات الصدور وخفض مزمل في مسألتنا .

وأما المسألة الثانية فهي من باب الاقواء أي اختلاف المجرى بكسر وضم ، وهو عيب من عيوب القافية كما قال الأستاذ ، وكان النابغة يقع فيه كثيرا .

وقد وقع له في هذه القصيدة مرتين في البيت المذكور ، وخرجه بعضهم على أنه منسوب فقرأه (الأسودي) بالياء، وفي بيت آخر منها حين يقول في وصف المتجردة :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إسْقَاطَهُ
فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِاليَدِ

بِمُخَضَّبٍ رَخْصِ البَنَانِ كَأنَّهُ
عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

ومن الواضح أن هذا لا يصح فيه تخريج ولو على وجه

ضعيف ، وبذلك تختلف هذه المسألة عن الأولى :

قالوا ودخل النابغة يثرب (المدينة المنورة)، فغنى بشعره وتعمد أن يكون المغنى من الشعر الذي أقوى فيه ، ففطن لذلك ولم يعد إليه . والخلاصة أن مسألة جر مزمل هي من واد غير الاقواء ، لكونها لها وجه ذكره عدد من النحاة على رأسهم صاحب الكتاب ، ولها شواهد بخلاف مسألة الاقواء ، فهي عيب من عيوب القافية لا مسامحة فيه .

وذكر الأستاذ الملاح في مقاله هذا ابن آجروم ، وقال : « إنه بربري من أقصى بلاد المغرب ، بل لانكاد ندري أين تقع آجروم » ، وقد توهم حضرته أن آجروم بلد ، وهو في الحقيقة إسم بربري لجد مؤلف الآجرومية محمد بن داود بن آجروم ، ومعناه بالعربية الفقير الصوفي ، وقد ذكر ذلك جل شراح المقدمة النحوية ، وما كنا نظن أن العلماء المغاربة مجهولون لهذه الدرجة بالمشرق ●

« الخبر وقع فيه تزيد من ابن تيمية ، ورواه ابن بطوطة على علاته ، فنسب إليه . »

ابن بطوطة وابن تيمية

قلت في بحثي عن ابن بطوطة المنشور في العدد الخاص من (مجلة المجمع العلمي العربي)، بمناسبة افتتاح مجلدها الأربعين : إن رحالتنا لم يأخذ عن ابن تيمية وإن قال إنه رآه ، وهي كلمة معبرة كشفت لجنة المجلة عما وراءها بالتعليق الذي كتبته عليها .

وسألني أحد الأصدقاء ماذا تعني لجنة المجلة بتعليقها ، هل هو الطعن في ابن بطوطة أم أنه يخبر بغير الواقع ؟ فأجبته : إن كان هناك طعن ، فأنا الذي بدأت

به لأن قولي « وإن قال إنه رآه » ، صيغة أقل ما تفيده الشك في هذه الرؤية .

والواقع أن ابن بطوطة تكلم في ابن تيمية بما لا مخلص له منه إلا على تأويل بعيد ، ولذلك لجأنا إلى الشك في خبره عنه ، فقد تكلم عنه بما لا يعدو أن يكون كلام خصومه فيه ، وذكر سجنه أولا ثم إطلاق سراحه فقال : « إلى أن وقع منه مثال ذلك ثانية ، وكنت إذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم ، فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل إلى سماء الدنيا كنزولي هذا ، ونزل من درجة المنبر ، فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء . . الخ ما قال » .

والتاريخ الذي ذكره ابن بطوطة لدخوله إلى دمشق ، هو يوم الخميس 9 رمضان عام 726هـ ، وقد أثبت العلماء أن ابن تيمية في هذا التاريخ ، كان معتقلا بقلعة دمشق ، وأنه دخلها يوم الاثنين بعد العصر 6 شعبان من السنة كما عند الحافظ ابن كثير وغيره ، فكيف يصح قول ابن بطوطة هنا مع تلك الفقرة التي نسبها إلى شيخ الإسلام في تفسيره لحديث النزول ، بما هو من قول المجسمة لا من مذهب السلف الذي يعد ابن تيمية قطبا من أقطابهم .

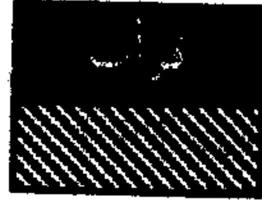
إننا لا نرى إلا أن الخبر وقع فيه تزيد من خصوم ابن تيمية ورواه رحالتنا على علاته ، فنسب إليه ، ومعلوم أن الرحلة لم يكتبها هو ، وإنما أملاها على الكاتب ابن جزي كما تبين ذلك في البحث المشار إليه ، فيجوز أن الكاتب توهم حضور ابن بطوطة للواقعة المزعومة ، في حين أنه كان يحكي ما سمع ، وسياق الخبر في الرحلة قد يؤيد هذا الإحتمال ، لأنه يذكر دخول الشيخ إلى السجن وبقاءه فيه إلى أن توفي رحمه الله ، فليس بعيدا أن يكون صدى سجنه منذ شهر ، ما يزال يتردد في دمشق ، وسبب هذا السجن الذي لابد أن يذهب فيه الناس مذاهب شتى، قد ألقي إلى رحالتنا الغريب كما رواه ، فجاء الكاتب بعد ذلك فحوره على ما يوجد في الرحلة من أنه كان شاهده .

والمقصود بهذه الكلمة ، هو النضح أولا عن شيخ الإسلام ونفي تلك الفرية عنه ، ثم التماس المخرج لرحالتنا ابن بطوطة من تبعتها ، لا سيما وهو قد عرف بالدين والورع والتثبت فيما يروي ، وثانيا بيان أن تعليق لجنة المجلة على تلك الجملة من البحث هو في محله ، وأني بتلك العبارة المشككة ، كنت ألمح إلى هذا الذي ذكرته اللجنة المحترمة مع عدم تجريح الرجل ، فلما أبدى لي الصديق المذكور

ملاحظته على هذا التعليق ، لم يبق بد من بيان الحقيقة وإزاحة الستار عن أصل الحكاية ●

« ألفت كتاب « النبوغ المغربي في الأدب العربي » بعد خلـــو كتب تاريخ الأدب العـــربي من الإشارة إلى المغرب وأدبه ، ولـو بكلـمة واحـــدة . »

« الأدب المغربي ليس إقليميا »



في مجلة الكتاب الغراء التي يصدرها إتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين ببغداد (العدد الخاص بذكرى ابن زيدون الألفية) مقالا بقلم إبراهيم سعفان عن رسالة الدكتوراه لكيلاني حسن ، في موضوع حازم القرطاجني التي نوقشت في كلية اللغة العربية من جامعة الأزهر ، جاء فيه وهو يتحدث عن أهم النقط التي تناولتها الرسالة ، أن صاحبها أشار إلى أن أثر الإقليمية في الشعر العربي القديم كان باهتا ، وأرجع رأي القائلين

بهذه الإقليمية إلى تأثرهم بنشأة الرومانسية الأوربية ، التي نقلها إليهم بعض الباحثين من المستشرقين ، وأدان (تعصب) كنون للأدب المغربي وزعمه بأنه كان منفردا مستقلا عن الأدب الأندلسي ، كما أنكر هجوم الدكتور أحمد هيكل على المحارب العظيم ابن أبي عامر ، والدكتور جودة الركابي لتحامله على المغاربة .

وقد أثار انتباهي هذا الإسراف في التعبير المشتمل على الإدانة والتعصب والزعم بالإضافة إلى الإنكار على الدكتورين المذكورين ، وتمثل لي صاحبه الذي لا أدري هل هو الكاتب أو المؤلف ، كأنه يتكلم من أعلى كرسي في محكمة للجنايات .

وعلى كل ، فعثرات اللسان كثيرة ، والمهم هو المؤدى لا التعبير ، ويظهر أن صاحب الرسالة يربط بين كلامه عن (تعصبي) للأدب المغربي والنظرية الإقليمية في الأدب ، وهذا اتهام آخر يوجه إلي ، ولو ضمنا ، من غير دليل ، وكان حقا عليه أن يستقصي في البحث على عناصر الموضوع قبل الحكم ، فهو إن كان بنى رأيه في (تعصبي) للأدب المغربي على كلامي في كتاب النبوغ كما هو ظاهر الحال ، فإن اتهامه إياي بالنظرة

الإقليمية ، يرده كلامي عليها وانتقادي لها منذ سنوات في خطابي الذي ألقيته في المؤتمر الثالث لأدباء العرب بالقاهرة سنة 1957 ، تحت عنوان « النقد والقومية العربية » ، وكنت إنما طولعت بهذا الموضوع بعد قدومي بيوم واحد سابق لافتتاح المؤتمر ، فركزت كلامي على انتقاد هذه النظرية ونقضها بالحجة القاطعة لمعارضتها لوحدة القومية العربية التي يعد الأدب أحد دعاماتها ، وهذا الخطاب منشور في كتاب المؤتمر الذي يضم أعماله في دورته الثالثة ، ولا شك أن مخالفتي لهذه النظرية كانت سابقة لهذا التاريخ ، عندما رأيت بعض الكتاب العرب يدعون إلى عزلة أدبية لأقطارهم ، وإلا لما كان لي أن أتحدث عنها بتلك الصراحة في مؤتمر عام لأدباء البلاد العربية ، والمراد القول إن المؤلف نسب إلي ما ليس من رأيي ، لعدم استيفاء بحث موضوعه .

وننظر في تهمة (التعصب) فأبادر إلى القول : إنني ما ألفت كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، إلا لما رأيت خلو كتب تاريخ الأدب العربي من الإشارة إلى المغرب وأدبه ولو بكلمة واحدة ، ورأيت بعض الكتاب ينكرون أن يكون للمغرب أدب ، ويرددون كلمات في الزراية على المغاربة ،

صدرت من بعض الأندلسيين الناقمين على الحكم المغربي لبلادهم بالرغم من أنه أنقذها من براثن العدو ، وبعد أن لم يكن في كتب المؤرخين للأدب العربي سطر ولا كلمة عن أدب المغرب ، أصبح لهذا الأدب كتاب من ألف صفحة ، إلا أني بكل تواضع إنما قصدت به بيان المساهمة الطيبة ، التي ساهم بها المغاربة في فنون الأدب العربي ، وهذا ماقلته في مقدمة الطبعة الثانية .

« لما ألفت هذا الكتاب لم أكن أهدف به إلى تمييز أدب المغرب بميزة ليست في الأدب العربي العام ، ولا إلى تخصيصه ببحث مستقل يجعله في نظر المغاربة أو غيرهم كتابا خاصا بأدب قطر من أقطار العروبة على حدته ، وإنما كان مقصودي الأهم من تأليفه ، هو بيان اللبنة التي وضعها المغرب في صرح الأدب العربي الذي تعاونت على بنائه أقطارالعروبة كلها ، وذكر الأدباء المغاربة الذين لم يقصروا عن إخوانهم من المشارقة ومغاربة بقية أقطار المغرب العربي ، في العمل على ازدهار الأدبيات العربية على العموم » .

وهكذا نظر إليه كل الأساتذة والباحثين ، من عرب وأجانب ، منذ صدوره في طبعته الأولى سنة 1937

إلى الآن ، ولكن صاحب رسالة حازم القرطاجني ، انفرد بالقولة المنقولة عنه سالفا في المقال الذي وصف به تقديم هذه الرسالة لنيل شهادة الدكتوراه ، ولابد من التعرض لمنشأ الخطأ في تلك القولة ، وهو على ما يظهر - لأننا لم نطلع على الرسالة - ما جاء في كتاب النبوغ (الصفحات : 164 - 165 - 166 ، ج ل ، ط 2) وهو هذه العبارات :

« وعلى ذلك لم تكن الآداب المغربية صورة طبق الأصل للآداب الأندلسية ، كما يظنه البعض ، بل كانت قائمة بنفسها تعبر عن شعور أهلها ولا تتأثر بالأندلس إلا كما تتأثر بالشام والعراق » .

وبعد أن ذكرت أسماء بعض الشعراء الذين يمكن أن نعتبرهم متأثرين بشعراء المشرق أو شعراء الأندلس ، تحقيقا للعبارة المذكورة ، قلت في عبارة أخرى : « والخلاصة أن الأدب المغربي هو غير الأندلسي ، وأنه لم يتأثر به إلا نسبيا » ، فلم أنف التأثر بأدب الأندلس كلية ، وفقا لما درجت عليه في العبارة الأولى ، وأكدت من جديد على التأثر بالأدب العربي العام ، الذي تأثر به الأندلسيون أنفسهم ، مشيرا إلى تمييز الأدب الأندلسي بالرقة لغلبة الحضارة على طبيعة أهله ، في حين تغلب على الأدب

المغربي الجزالة لقوة نفوس أهله وتجاوبه مع أدب المشرق أكثر من غيره .

فأي تعصب في هذا الكلام الموزون بميزان دقيق ، إلا أن يكون الدرس والتحليل عاملي تعصب ، فقل حينئذ : على البحث العلمي السلام !

ولم أسبق أنا إلى هذا الرأي ، بل قاله قبلي أديب كبير من أدباء الأندلس ونقله عنه علم من أعلامها ، كما ذكرته في المرجع نفسه معتضدا به . والأديب هو خاتمة شعراء الأندلس ابن زمرك ، والعالم هو أبو إسحاق الشاطبي ، حسبما جاء في كتابه (الإنشادات والإفادات) قال :

« أفادني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك ، إثر إيابه إلى وطنه (الأندلس) ، من رحلة العدوة (المغرب)، في علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثا » وبعد ذكرها قال :

« وأخبرني أن كتاب المغرب يحافظون على شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمون ما عداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد إلا فيها » .

فيرى القارئ أني لم أزد على ما قاله هذا الأديب الأندلسي ، وهو من هو ، إذ كان في الشعر والكتابة نسيج وحده ، وهو الذي خلف الوزير ابن الخطيب في منصبه بغرناطة وقد تقبل رأيه هذا ، الإمام الشاطبي وسلمه ، وهو من هو حصافة رأي وصحة نظر !

وما لي أبعد النجعة ، وهذا الدكتور طه حسين الذي يلقب بعميد الأدب العربي يقول في مقاله الذي كتبه عن النبوغ المغربي ، ونشر في جريدة أخبار اليوم المصرية بتاريخ 8 / 5 / 1965 ، ثم أعاد نشره في كتابه خواطر ، ما نصه :

« ولم أقل إلى الآن شيئا عما يشتمل عليه الكتاب من مختارات الشعر والنثر ، لأني حرصت قبل كل شيء ، على أن أؤدي لصاحب هذا الكتاب بعض حقه ، والواقع أن الكتاب يشتمل على شعر ونثر أكثره جيد ممتع ، وكثير منه رائع حقا » .

« والغريب أني قرأت كل ما في هذا الكتاب من المختارات في العصور المغربية المختلفة إلى أواسط القرن الهجري الماضي ، فلم ألاحظ فيه تكلفا ولا تصنعا ولا التزاما للبديع ، على كثرة شيوع البديع ، والتزامه في

كثير من شعر المشرق ونثره ، ولا سيما في العصور المتأخرة ، وهذا يدل على أن عدوى البديع لم تصل إلى المغرب الأقصى ، وعسى أن يكون بعده في المكان ، وأنه لم يخضع لسلطان أجنبي ، إلا في عصر الحماية الفرنسية ، وهو والحمد لله عصر قصير ، كل هذا أتاح له من الحرية السياسية والعلمية والأدبية ما لم يتح للبلاد التي خضعت للسلطان الأجنبي في الشرق والغرب » .

ولعل الدكتور طه حسين في كلامه هذا ، تجاوز ما قلته أنا في تقويم الأدب المغربي وجعل كيلاني حسن يدينني بالتعصب ، فليت شعري ماذا يقول في عميد الأدب العربي بعد أن يقرأ كلامه هذا !

وأكتفي بهذا القدر ، في رد كلام الدكتور الجديد الذي بدأ بداية غير حسنة باتهام الناس والإنكار عليهم ، ولا سيما وأنا لم أطلع على ما قاله بلفظه ●

« كيف يحلف عمـر على أمرين ، كلاهما غيب ورهن المسـتقبل . ؟ »

تحرّي ابن الخطاب

عرض

علينا في العام الماضي قسم من المعجم الكبير ، الذي يضطلع به المجمع، وكان مما فيه حرف الهمزة مع الكاف وما يثلثهما ، وقد جاء في هذا الحرف ذكر آكلة اللحم بمعنى السكين ، والإستشهاد عليه بقول عمر بن الخطاب ـ ض ـ نقلا عن النهاية لابن الأثير : « والله ليضربن أحدكم أخاه بمثل آكلة اللحم ثم يرى أن لا أقيده ، والله لا قيدنه منه » .

وإذا كان محل الشاهد لاغبار عليه ، فإني قد

استشكلت أول النص ، وهو هذا القسم من عمر بصيغة الحنث على أنهم يفعلون ذلك ويعتقدون أنه لا يؤاخذهم به ، فقلت كيف يحلف عمر على أمرين كلاهما غيب ورهن بالمستقبل ، وذلك بصيغة الحنث التي لا يبر الحالف فيها حتى يفعل المحلوف عليه :

الْبِرُّ لاَ فَعَلْتُ إِنْ فَعَلْتُ

لاَ فِعْلِي إِنْ لَمْ أَفْعَلْ حِنْثُ

وهذا مما يتعلق به هو ، فكيف بغيره ؟

وقد كنت أبديت هذه الملاحظة في إحدى جلسات المؤتمر السابق ، ولكنها لم تثبت في المحضر ، كأنها اعتبرت ملاحظة جانبية على هامش الموضوع .

واهتممت بالأمر فراجعت المادة في نسختين من النهاية ، هما طبعة المطبعة الخيرية بمصر لصاحبها عمر الخشاب ، وطبعة المطبعة العثمانية لصاحبها عثمان عبد الرزاق ، فإذا النص فيهما معا بدون يمين هكذا « ليضربن أحدكم أخاه » .

ورجعت إلى الفائق في غريب الحديث للزمخشري فإذا به يقول :

« عمر رضي الله عنه : الله ليضربن أحدكم أخاه »

بهمزة قطعية في أوله ليس غير ، وإلى مجمع بحار الأنوار للشيخ ظاهر الهندي ، فوجدته ينقل عن النهاية والنص فيه كما هو فيها بدون يمين .

ثم رجعت إلى لسان العرب فوجدت النص فيه كما جاء في المعجم الكبير بلفظ : « والله ليضربن أحدكم أخاه » .

ورجعت إلى التاج فوجدت النص فيه بلفظ : « ء الله ليضربن أحدكم أخاه » بهمزة الإستفهام أوله .

وإزاء هذا الإختلاف في نص الشاهد ، أخذت أبحث عن تخريجه ومظان ذكره ، في ترجمة عمر لدى المؤرخين من ابن سعد، وابن الأثير ، وابن كثير ، والمحب الطبري ، وسواهم وفي كتب الحديث كمسند الإمام أحمد ، وفي كتب الفقه الأمهات على اختلاف المذاهب ، فلم أظفر به في أي مرجع من هذه المراجع بهذا اللفظ ، نعم وجدت معناه في كثير منها ، وأقرب لفظ له وقفت عليه وهو مما ذكر فيه تعبير آكلة اللحم ، ما جاء في المحلى لابن حزم من رواية أبي بكر ابن أبي شيبة بسنده إلى عمر : « يعمد أحدكم إلى أخيه فيضربه بمثل آكلة اللحم ، لا أوتى برجل فعل ذلك فقتل إلا أخذته به (*) » .

(*) المحلى ج 10 ص 387

وعلى هذا لم يبق لي إلا النظر في الروايات التي بين يدي والترجيح بينها ، وقد ظهر لي أن رواية اللسان فيها تصحيف ، وهذا التصحيف هو الذي يؤدي إلى المحظور الذي ذكرته من حلف عمر على ما لم يكن كأنه كان ، ومنافاته للعقل والمنطق ولما عرف به عمر من التقوى والتحرج من الإثم ، بقيت رواية الفائق « الله ليضربن » وهي صيغة قسم أيضا حذفت منه الواو وعوضت بقطع الهمزة من إسم الجلالة على ما في المفصل للزمخشري .

ولفظه نصب إذا لم نعتبر العوض ويجوز جره لقيام العوض مقام المعوض عنه قال في المشارق (*): « وحكى أبو عبيد عن الكسائي كل يمين ليس فيها واو فهي نصب ، إلا في قولهم الله لآتينك فإنه خفض - يريد ولا حرف قسم - وذلك أن القسم عندهم فيه معنى أي أقسم وأحلف بالله أو والله ، فإذا حذف حرف القسم عمل الفعل عمله فنصب مفعوله » .

وإلى هذا المعنى أشار ابن بونه في الإحمرار :

وَاللهِ جَرُّهُ جَوَازًا إِنْ حُذِفْ
فِعْلٌ وَخَافِضٌ وَعُوِّضَ أَلِفْ

(*) ج 2 ص 353 وينظر أيضا الجمل للزجاجي طبعة الجزائر ص 84

أَوْمَا أَوِ احْكُمَنْ بِأَنَّهَ قَطَعْ
هَمْزَتَهُ وَدُونَهَا جَرٌّ سُمِعْ

وعلى كل ، فما يلزم على رواية اللسان ، يلزم على هذه الرواية ، وأرى أنها محرفة من الرواية الثالثة التي عند صاحب التاج .

ورواية صاحب التاج كما رأينا ، هي ءآلله بهمزة الإستفهام ، وهذه الرواية يصح فيها الضم على حد حديث ضمام (ء الله أمرك بهذا) ، ويصح فيها الجر على ما في الجمل للزجاجي ، حيث قال في باب القسم وحروفه :

« وإنما جعلوا ألف الإستفهام عوضا من الخافض فخفضوا بها فقالوا أالله ليخرجن » ، وبكلا الوجهين فإن الإستفهام هنا منوي ومقصود حتى لو حذفت أداته لأنه تقرير وإنكار ، ولا يخرج نص الشاهد من التبعة التي ذكرناها ويجعله في تحلة من تلك اليمين إلّا هو فالرواية التي جاءت عليه هي الصحيحة إذن ، وغيرها محرف منه ●

« فأما إدخال أل على غيـر ، فقد نص العلماء على أنـها خطأ . »

لا وجه لتعريف « غير »

الأستاذ عارف النكدي ، في مقال له بالجزء الثاني من المجلد الثامن والثلاثين من مجلة المجمع العلمي العربي، بوقوع مناقشة بين الدكتورين طاهر الخميري وإبراهيم السامرائي في مسألة إدخال أل على غير ، وجمع معجم على معاجم ، نشرت في مجلة « اللغات » بتونس ، وعقب حضرته على ذلك بما أوضح المسألة وطلب رأي أعضاء المجمع وقراء مجلته ، ليكون الرأي رأي جماعة لا فرد ، وبصفة كوني من الفريقين معا ،

حبب إلي أن أدلي برأيي الذي أجمله في هذه المراجعة ، وإن كان في الحقيقة ليس رأيا ، بل تقريرا لما عند علماء العربية في هذا الشأن .

فأما إدخال أل على غير فقد نص العلماء على أنها خطأ ، لأنها لا تتعرف ولو بالإضافة ، وذلك لشدة إبهامها ، وأصلها أن تكون صفة لنكرة نحو (ارجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل)أو لمعرفة قريبة من النكرة نحو (غير المغضوب عليهم) لأن المعرف الجنسي قريب من النكرة ، وبهذا يعلم أن تجويز إدخال أل على غير ، بناء على أنه تعريف كتعريفها بالإضافة في نحو غيري وغيره ليس بصحيح .

وتساؤل الأستاذ ، هل قولنا غيري فعل هذا ، أكثر تعريفا من قولنا : الغير فعل هذا ؟ يقال عليه صحيح أنه ليس أكثر تعريفا منه ، بل ولا هو معرفة أصلا حتى ينظر في المفاضلة بينه وبين ما حمل عليه في التعريف ، وإنما جاء ذلك من شدة إبهام غير ، التي لا يتعين المراد بها .

نعم ، ذهب ابن السراج إلى أن المغاير إذا كان واحدا تعرفت غير بإضافتها إليه ، وبه يقيد قول السيرافي ، إذا وقعت غير بين متضادين تعرفت ، أي بين متضادين لا ثالث

لهما كقولنا : الحركة غير السكون والزوج غير الفرد ، بخلاف القيام غير القعود فإنها لا تتعرف لصدقها بالإتكاء والإضطجاع ونحوهما .

وهذا كله في الإضافة ، وأما أل فلا مورد لها هنا، لأنها إما للجنس وإما للعهد ، ولا تحقق لأحدهما في دخولها على غير ، فبقي أن إدخالها عليها خطأ تساهل فيه المتأخرون ، ولم يقع من أحد من المتقدمين ، والسجاعي والهوريني كلاهما متأخر لا يحتج به .

وأما جمع معجم على معاجم ، فإنه مما لا ينبغي الإختلاف فيه ، وليس جمعه على معجمات بأقيس منه ، ولا حاجة إلى تتبع الكلمات التي جاءت على وزنه مجموعة بذلك الجمع ، فإن المقرر نحويا أن مفاعل هو من باب فعالة الذي قال فيه ابن مالك في الألفية .

وَبِفَعَالِلَ (وشبهه) انطقا / في جمع ما فوق الثلاثة ارتقى / من غير ما مضى . .

وقد ذكروا أن شبه فعالل مفاعل وفياعل وفعاول وغيرها، مما هو مثله عددا وهيئة وإن خالفه زنة كمفاعيل وفعاعيل ونحوهما ، فهذه كلها جموع لما زاد على الثلاثة من الرباعي فما فوقه أصلياً كان أو مزيدا ، باستثناء باب كبرى

وسكرى وأحمر ورام وكاهل ونحوها ، وهو ما أشار له ابن مالك بقوله (من غير ما مضى) ، فإن له جموعا أخرى ذكرها في محلها ، ويدخل فيها ما نحن بصدده ، أعني الرباعي ، الذي يجمع على مفاعل مثل : معجم ومصحف مما أوله مضموم ، ومسجد ومعهد مما أوله مفتوح ، ومعول ومبرد مما أوله مكسور ، فيقال : معاجم ومصاحف ومعاهد ومعاول ومبارد قياسا لا تردد فيه ، وكذا كل ما كان مثله ●

« ذكر الدكتور عبد الجليل عبد الرضا ، أن مدينة بلنسية ، لم تسقط بيد المرابطين ، وهذا غير صحيح . »

التاريخ يشهد

سررت بغاية السرور التعقيب الذي كتبه الدكتور عبد الجليل عبد الرضا ، على مقالي المنشور بالعدد 171 ، من مجلة العربي الغراء ، فسرني جدا لما يتضمنه من الإهتمام بتاريخ المغرب ورجالاته ، هذا الإهتمام الذي يدل على قوة التلاحم والترابط بين جناحي بلاد العروبة والإسلام الشرقي والغربي ، وكنا نتفقده قبل فلا نجده إلا عند القلة من الكرام الكاتبين .

لكني، لاحظت أن تعبير المعقب بأخطاء علمية ، هو

مقولة أكبر من أن تطلق على تلك المآخذ ، التي عقب بها على المقال ـ لو صحت ـ فكيف والأمر ليس كذلك ، كما يتبين مما يلي :

1) أنكر المعقب اتخاذ يوسف ، لقب أمير المسلمين قبل موقعة الزلاقة ، وقال إن هذا ثابت باتفاق أغلب المؤرخين القدامى ، وليس هذا بصحيح ، فقد أثبت المؤرخ المغربي الثقة ابن أبي زرع في القرطاس ، سبق إطلاق هذا اللقب على يوسف ، لموقعة الزلاقة ، وأنه كان بمداولة بين زعماء المرابطين وقادتهم ، وأثبت صاحب الحلل الموشية ، رسائل صدرت عن يوسف باللقب المذكور قبل موقعة الزلاقة ، وذكر الخبر ابن عذارى المراكشي المؤرخ المعروف ، وعنون له بعنوان خاص ، وهؤلاء كلهم من القدامى ومن حفظ حجة على من يحفظ ، على أننا ألمحنا إلى القول الثاني فالإعتراض به إنما هو من التمحل .

2) أنكر المعقب عبور المعتمد إلى يوسف قبل موقعة الزلاقة ، وهو ثابت عند المؤرخ ابن أبي زرع ، وابن خلدون ، وصاحب الاستقصا ، وسياق خبر الإستنجاد بيوسف ، يدل على أن الكتب والوفود من الأندلس ، قد تكررت عليه .

3) ذكر المعقب أن تاريخ موقعة الزلاقة ، هو 12 رجب 479 هـ ـ 23 أكتوبر 1086 وليس 1486 ، والتاريخ الميلادي الذي ذكره صحيح ، وهو الذي ذكرته أنا في مقالي ، والأصل عند هيئة تحرير العربي ، يشهد بذلك ، لأن بيدي نظيره المضروب على الآلة الكاتبة ، و1486 ، ليس إلا خطأ مطبعيا ، أما التاريخ الهجري ، فالذي ذكرته هو الصحيح ، والوثيقة التي أشار إليها المعقب ثابتة في تاريخ القرطاس لابن أبي زرع ، طبعة فاس وطبعة الرباط ، وكلتاهما تحمل تاريخ يوم الجمعة 11 رجب لا 12 ، وقد رجحنا ما فيها على طبعة أوربا ، وعلى ما عند غير ابن أبي زرع من أن الموقعة كانت في منتصف رجب أو في رمضان ، لذكره الموافق من التاريخ الميلادي .

4) حصن لبيط تصحف في الطبع إلى لبيسط ، وكان تصحف في النسخة المضروبة على الآلة الكاتبة ، فصححناه بالقلم ، وكتبنا إسمه بالإسبانية ALEDO ، فتصحف إلى CALEDO ولو تأمل المعقب في ذلك لأدرك التصحيف ، إذ لا مناسبة بين الإسمين ، لأن مقابل البسيط بالألف واللام ، هو ALBACETE ومما يدل على هذا التصحيف المطبعي ، أن إسم بلكين ، جاء في المقال مرتين هكذا بسلكين ، بسين

بعد الباء وقبل اللام . والعجب كيف لم يعده المعقب خطأ (علميا) !

ثم إن المعقب ذكر أن محاصرة هذا الحصن لم يحضرها المعتمد ، وصاحب مرسية فقط ، بل حضرها غيرهما من ملوك الطوائف ما عدا صاحب بطليوس ، ونحن ذكرنا الرواية التي أكدها صاحب القرطاس أولا ، ثم ذكرنا الرواية الثانية ، التي تقول بحضور بقية ملوك الطوائف لهذه المحاصرة ، وذلك في فقرة طويلة تبتدئ كما يلي : « وهذا الذي ذكرناه في الجواز الثاني ليوسف ، هو رواية صاحب القرطاس ، وفي الحلل الموشية بعض مخالفة لذلك ، وأن الأمر لم يكن يتعلق بالمعتمد وحده ، فأهل بلنسية ، ومرسية ، ولورقة وبسطة ، كلهم كانوا يتعرضون لغزوات العدو ، وكلهم استنجدوا بيوسف ، وحصار حصن لبيط ، كان مناوبة بين جيوش هذه البلاد ، إلى آخر الفقرة التي حذفت من المقال ، بمعرفة قلم التحرير في المجلة .

5) ذكر المعقب أن بلنسية ، لم تسقط بيد المرابطين ، وأنها بقيت بيد ابن ذي النون ، إلى أن انتزعها منه السيد الكمبيادور ، وذلك غير صحيح ، فإنها دخلت في حكم المرابطين بتسليم أهلها وقيامهم على ابن ذي النون وقتلهم

إياه ، ثم هاجمها السيد الكمبيادور ، وقد نص على سقوطها في أيديهم صاحب القرطاس وغيره .

6) نفى المعقب أن يكون يوسف ، يعرف العربية فردد ما كان أنصار ملوك الطوائف ، يشيعونه عنه ويعيبونه به ، وإن كنا مع المعقب في أن هذا ليس عيبا ، وقد غفل المعقب عما صدرنا به هذه الترجمة من الكلام على نشأة يوسف ، وتخرجه في مدرسة عبد الله بن ياسين ، مما يرجح أنه لم يكن أجنبيا عن العربية . . وكان في بقية المقال ، وهو أكثر من ثلاث صفحات حذفت بمعرفة قلم تحرير المجلة ، حجج أخرى على نفي هذا النفي ، ونفي النفي إثبات ، ويظن كثير من إخواننا في الشرق أن البربر مثل غيرهم من العجم ، لا يلمون بالعربية ولا يعرفها منهم إلا خاصة الخاصة ، والأمر بالعكس فمعظم القبائل البربرية تتكلم العربية ، وكثير منها لا تعرف البربرية أصلا ، مثلا : قبائل جبالة بشمال المغرب ، وليس في بلاد البربر قرية ليس لها كُتَّابٌ أو مدرسة ، تلقن الأطفال القرآن الكريم ودروس الدين باللغة العربية ، ولعل أبسط حجة نعطيها للمعقب على عدم صحة تعليله لرأيه في يوسف ، بأنه عاش أغلب عمره في بيئة بربرية ، هو أن يحيى بن عمر ، كان الساعي

الأول في نشـــأة دولة المرابطين ، لما رجع من الحج ومـــر بالقيروان ، كان يحضر مجلس الإمام أبي عمران الفاسي في مسجد القيروان ، فسأله أن يبعث معه أحد طلبته لنشر العلم ببلاده . . إلخ الخبر ، فهل كان درس أبي عمران ، يترجم ليحيى بن عمر بالبربرية كي يفهمه ؟ ومعلوم أن يحيى رجع بكتاب أبي عمران إلى تلميذه وجاج ، ولقيه في رباطه بسوس ، وهذا بعث معه تلميذه عبد الله بن ياسين ، صاحب دعوة المرابطين ، فقبل نشأة يوسف ، لم تكن البيئة الصنهاجية أو البربرية ، (المرابطية فيما بعد) بربرية محضة .

نعم إن يوسف ربما لم يكن يفهم كتب المنشئين البلغاء ، مثل : ابن زيدون وابن القصيرة ، وابن أبي الخصال وأضرابهم ، وهذه نجد في دكاترة الأدب اليوم ، من يتعثر فيها ويعلق على بعض ألفاظها تعاليق مضحكة !

7) قال المعقب إن نفي عبد الله بن بلقين ، كان إلى أغمات وليس إلى مراكش ، والحقيقة أن نفيه كان أولا إلى مكناس ، ثم إلى أغمات ، ولكن يوسف كان حفيا به ، كما يذكر ذلك عبد الله نفسه ، وأنزله معه فيَ دار ملحقة بداره ، ولكن ابن أبي زرع ، يؤكد أن عبد الله ، قضى

بقيـة حيـاته هو وأسرته في مـراكش ، وابن الخطيـب ، يذكر أيضـا أنه استقر بمراكش ، وحل عقاله ورفه عنه ورزق الولد وتوفي ، وترك لهم مـالا جمـا ، فذلك مما يؤيد أنه إن حمل أولا إلى أغمـات ، فلم يلبث فيهـا وأنه عـاش في مـراكش طليقا حرا ، وتوفي بها كما توفي بها متبوعه يوسف ، لأنه على ما يظهر ، كان يحرص على وجوده معه أينما كان . ●

« ليس هناك شاعر أندلسي معروف بهذا الإسم : ابن جدار . »

ابن جدار .. شاعر مصري



الأستاذ المحقق أحمد فاروق ، من معهد الأبحاث الإسلامية ، بإسلام أباد بباكستان ، في الجزء الثاني من المجلد السابع والأربعين ، من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، رسالة في الإسم والمسمى ، للعلامة ابن السيد البطليوسي ، ورد فيها هذان البيتان استشهادا على أن الإسم غير المسمى للشاعر ابن جدار :

هَيْهَاتَ يَا أُخْتَ ءَالِ يَمٍ

غلِطْتُ فِي الِإسْمِ والمُسَمَّى

لَوْ كَانَ هَذَا وَقِيلَ سَمّ
مَاتَ إِذَنْ مَنْ يَقُولُ سَمَا

وعلق المحقق الفاضل على إسم هذا الشاعر بقوله : لم نجد له ترجمة ، لعله من ذكره صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب (ط القاهرة 1953 م ص 251) ، وعقب على هذا التعليق الأستاذ الفاضل راتب النفاخ ، الذي عهدت إليه المجلة بمراجعة الرسالة ، بأنه لم يجد ذكرا لابن جدار ، في كتاب المغرب ، الذي نشره الدكتور شوقي ضيف ، ظنا منه أنه القسم الخاص بالأندلس من كتاب المغرب لابن سعيد المغربي.

وقد كتب الأستاذ الكبير محمد عبد الغني حسن ، كلمة نشرت في الجزء الرابع ، من المجلد المذكور من المجلة ، بين فيها أن الأستاذ فاروق ، قصد القسم الخاص بمصر من كتاب المغرب ، وهو المنشور في التاريخ المشار إليه ، وبه في الصفحة المعنية من الجزء الأول منه ، ترجمة لابن جدار ، وهو شاعر عالم مصري ، كان معاصرا لابن طولون .

ثم قال الأستاذ عبد الغني حسن : « ولكن إسمه جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموى ، (ابن حذار بالحاء المهملة المضمومة وا لذال المعجمة » . . الخ وختم كلمته

المفيدة بقوله :

« بقي أن نقول إننا ما زلنا على جهل » بابن جدار « الذي ذكره ابن السيد البطليوسي » واستشهد ببيتين من شعره ، فقد يكون أندلسيا مجهولا لدينا ، وقد يكون هو الشاعر العالم المصري . . ولعل ظروفاً سعيدة أو قارئا كريما، يكشف لنا الستار عن « ابن جدار » . . وبذلك نضيف إلى أعلامنا العرب ، شخصية لا يزال يغشيها النكران ، ويحجبها عدم العرفان ، والله الموفق المعين » .

ونحن استجابة للأستاذ الجليل ، ندلي بما عندنا ـ وهو شيء قليل ـ عن « ابن جدار » ، عسى أن يلقي الضوء على ترجمته ، وتنقشع السحب عن تمييز شخصيته ، فنقول :

أولا : إن ابن جدار هو هذا العالم الشاعر المصري المترجم عند ابن سعيد المغربي ، في القسم الخاص بمصر من كتابه المغرب ، من غير شك ولا ريب ، وليس هو بحال أندلسيا ، لأننا لا نعرف أديبا أندلسيا بهذا الإسم ، ولو كان أندلسيا ، لذكره ابن سعيد في شعراء الأندلس ، الذين جمع منهم ما لم يجمعه غيره ، ثم هو معاصر لابن طولون ، والبيتان المستشهد بهما عند ابن السيد البطليوسي ، هما من قصيدة له غريبة في مدح ابن طولون ، وليس هناك

شاعر أندلسي معروف بهذا الإسم ولا بغيره ، رحل إلى مصر في عهد ابن طولون ومدحه بشعر ، بل إن في القصيدة التي منها البيتان ذكر لعلمين من أعلام مصر ، وهما : يونس بن عبد الأعلى ، والمزني من أصحاب الشافعي ، وذلك مما يؤكد مصريته ويزيدها إثباتا .

ثانيا : قال ابن عبد ربه في كتاب العقد ، في الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومخارجه ما نصه : « وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء ، منفرد في غرائبه ، وبديع صنعته ولطيف تشبيهه ، كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون » وأتى« بالقصيدة المنوه بها ، ومنها البيتان اللذان وقعا شاهدا عند ابن البطليوسي .

فهذا النص ، زيادة على دلالته القاطعة على مصرية شاعرنا ابن جدار ، يعطينا رأيا لأديب الأندلس في شعره ، وهو رأي يحله محلا مرموقا بين شعراء عصره ، ثم هو يمدنا بأثر نادر من آثاره الشعرية ، وهو هذه القصيدة الغريبة ، التي يرويها ابن عبد ربه بتمامها على طولها ، ويستشهد ابن السيد ببيتين منها ، مما يدل على تتبع أدباء المغرب وعلمائه ، لشعر المشارقة وإعجابهم به . . وفي هذا كله ، ما يلقي ضوءا كاشفا لجوانب من حياة شاعرنا

العبقري ابن جدار .

وأحب هنا ، أن أسجل بعض ذكرياتي مع قصيدة ابن جدار هذه ، قبل أن أرويها للقارئ الكريم ، فقد وقفت عليها في (العقد) ، وقرأت ما وصفها به صاحب العقد ، وأنا في عنفوان الشباب ، ولكنها ، استعصت علي من أول يوم ، قراءة وفهما ، مع ما كنت أزعم لنفسي من معرفة بالشعر ، لهزجه ورجزه ، وما زالت كذلك ، حتى شككت في قيمتها وفي حكم ابن عبد ربه عليها ، وصرت أعرضها على كل من أثق بعلمه وأدبه ، وممن عرضتها عليهم من الأصدقاء الذين هم بالوصف المذكور الوزيران : محمد بن موسى ، والمختار السوسي رحمهما الله ، فلم يشقا لها غبارا ، والدكتور تقي الدين الهلالي ، ولكن هذا أشار في شأنها برأي صائب فقال : لا بد لحل مقفل هذه القصيدة ، من تتبع مصادرها وجمع أكثر ما يمكن من نسخ العقد ، وغيره من الكتب التي ذكرتها ، لمقابلتها وتصحيحها واستخراج نصها الصحيح ، ثم بعد ذلك يجب دراستها دراسة علمية منهجية ، وحينئذ يسهل الوقوف على معناها ومبناها .

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ، أنني سافرت

إلى عاصمة الرباط ، وفي إحدى سنوات العقد الخامس من التاريخ الميلادي ، أعني قبل استقلال المغرب ، فقصدت دار الفقيه الوزير محمد بن العربي العلوي ، رحمه الله لزيارته ، فقيل لي إنه في درس بالمسجد المجاور لبيته ، فدخلت المسجد ، ولما رآني قال للطلبة المحلقين حوله ، هذا فلان ، ورحب بي وأنهى الدرس ، وخرجت معه وذهبنا إلى بيته ، فقلت له : ماذا تقرأون ؟ قال لي : كتاب العقد لابن عبد ربه . قلت وكيف ؟ قال :إن الطلبة اختاروه واقترحوه . فقلت : وأين وصلتم فيه ؟ قال مازلنا في أوائل الجزء الأول . فقلت : إنكم ستجدون فيه قصيدة من أعجب القصائد ، تعصت قراءتها فأحرى فهمها . قال : أهي من الشعر الجاهلي ؟ فقلت : لا بل هي لشاعر مولد . فأحب أن يطلع عليها وطلب الجزء الذي هي فيه ، وقد قلت له : إنه الثالث من الطبعة المصرية المتداولة ، فلم يجده ، ثم تذكر أنه عند صديقه القاضي أحمد بن اليزيد البدراوي ، فبعث ابنه لإحضاره ولما جاء به أوقفته عليها فجعل يقرأها ويتنغم بها لمعرفة وزنها ، فقلت له : إنها من مخلع البسيط ، ولم يزل يدندن بها من غير طائل ، وطوى الكتاب وقال لي بمزاحه المعهود : على كل حال نحن ما

نزال في الجزء الأول ، وانظر هل نتمه ؟ .

ولما ظهرت الطبعة الجديدة (للعقد)، التي أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، في سنة 1946 ، بتحقيق الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبياري ، اقتنيتها من أجل هذه القصيدة ، وإن كنت لا أقتني كتابا عندي منه نسخة سابقة ، ولا ألتفت لإغراء التحقيق ، وقد سارعت لتصفح الجزء الذي به القصيدة ، وهو الخامس ، فوجدت المحققين الأكفاء ، قد قاموا بعمل المقابلة بين نسخ الكتاب ، وصححوا الكثير من ألفاظ القصيدة ، ولكنها مع ذلك ، ما يزال الغموض يكتنف بعض أبياتها ومعانيها ، بحيث تبقى شهادة ابن عبد ربه غير مطابقة لها تماما .

والآن نورد نص القصيدة ، بعدما تشوق القارئ لها معتمدين فيه على طبعة لجنة التأليف المصححة بعناية من ذكرنا إلا بعض ألفاظ لم نر صواب ما أثبتوه منها ، فنعتمد فيها نسختنا (وهي طبعة عادية صدرت بمصر سنة 1316 في ثلاثة أجزاء) مع التنبيه على ذلك تعليقا ، وسنضع أسماء البقاع بين قوسين اكتفاء بذلك عن شرحها ، ولا نشير إلى اختلاف النسخ ، إلا إذا كان فيه توضيح للمعنى ، وها هي هذه :

كَمْ بَيْنَ (بَارِي) وَبَيْنَ (بَمَّا)
وَبَيْنَ (بَوْنٍ) إِلَى ـ ذَمَّا ـ
مِنْ رَشَا أَبْيَضِ التَّرَاقِي
أَغْيَدَ ذِي غُنَّةٍ أَحَمَّا [1]
وَطَفْلَةٍ رَخْصَةِ الْمَرَاثِي [2]
لَيْسَتْ تُحلَّى وَلَا تُسَمَّا
إِلَّا بِسِلْكٍ مِنَ اللَّآلِي
يُعْجِزُ مَنْ يُخْرِجُ الْمُعَمَّى
صُغْرَى وَكُبْرَى إِلَى ثَلَاثٍ
مِنَ التَّهَالِيلِ أَوْ أَتَمَّا [3]
وَكَمْ (بِبَمٍّ) وَأَرْضِ (بَمٍّ)
وَكَمْ (بِرَمٍّ) وَأَرْضِ (رَمَّا)
مِنْ طَفْلَةٍ بَضَّةٍ لَعُوبٍ
تَلْقَاكَ بِالْحُسْنِ مُسْتَتِمَّا

---

(1) أحفظه في نسخة من (العقد) ليست تحت يدي الآن ، ذي جمة ، وهي أليق بأحم .

(2) في الأصل (أعني طبعة اللجنة) ، رخصة المداري وما أثبته أنسب في نظرنا .

(3) نرى أن رواية التهليل أنسب مع أتم من التهاليل التي هي رواية الأكثر حسبما عندنا وثبت في الأصل.

مِنهُنّ رَيًّا وَكَيْفَ رَيَّا
رَيًّا إِذَا لاَقَتْ الْمَشَمَّا
لَوْ شَمَّهَا طَائِرٌ بِدَوٍّ
لَخَرّ فِي التُّرْبِ أوْ لَهَمَّا
تَسْحَبُ ثَوْبَيْنِ مِنْ خَلُوقٍ
قَدْ أَفْنَيَا زَعْفَرَانَ (قُمَّا)
كَأنَّمَا أحْنَيَا عَلَيْهَا [1]
مِنْ طِيبِ مَا بَاشَرَا وَشَمَّا
فَالْعَيَا زَعْفَرَانَ (قُمٍّ)
فَانْغَمَسَا فِيهِ وَاسْتَحَمَّا
فَهَلْ تَظُنُّ اسْمَهَا الْمُرَيَّا [2]
يَفُوحُ لاَ مِرْطَهَا الْمُدَمَّا
هَيْهَاتَ يَا أُخْتَ ءَالِ (بَمٍّ)
غَلَطْتُ فِي الإِسْمِ وَالْمُسَمَّى
لَوْ كَانَ هَذَا وَقِيلَ سَمَّ
مَاتَ إِذَنْ مَنْ يَقُولُ سَمَّا

---

(1) في الأصل جليا وقد اخترنا ما في نسختنا .
(2) في الأصل . فهي نظير اسمها المعلى وقد اخترنا عليه ما في نسختنا .

قَدْ قُلْتُ إِذْ أَقْبَلَتْ تَهَادَى
كَطَلْعَةِ الْبَدْرِ أَوْ أَتَمَّا
تُومِي بِأُسْرُوعَةٍ وَتُخْفِي
بِالْبُرْدِ مِثْلَ الْقِدَاحِ حُمَّا
لَوْ كُنْتُ مِمَّنْ لَكُنْتُ مَمَّا
لَكِنَّنِي قَدْ كَبِرْتُ عَمَّا
عَاتَبَنِي الدَّهْرُ فِي عِذَارِي
بِأَحْرُفٍ فَارْعَوَيْتُ لَمَّا
قُوِّسَ مَا كَانَ مُسْتَقِيمًا
وَابْيَضَّ مَا كَانَ مُدْلَهِمًّا
وَكَيْفَ تَصْبُو الدُّمَى إِلَى مَنْ
كَانَ أَخًا ثُمَّ صَارَ عَمًّا
بِي عَنْكِ يَا أُخْتَ آلِ (بَمٍّ)
شُغْلٌ بِمَا قَدْ دَنَا وَجَمَّا (*)
فَلَسْتُ مِنْ وَجْهِكِ الْمُفَدَّى
وَلَسْتُ مِنْ قَدِّكِ الْمُحَمَّى

(*) في الأصل بما قد دنا مهما ، ولم نستسغه ، وفضلنا عليه ما في نسختنا . ومعنى جم دنا ، فهو من عطف المرادف .

أذهلني عنك خوفُ يــوم
يَحْيَى لهُ كُلُّ مَا أرَمَّــا (1)
مَا كَسَبَتْهُ يَــدايَ هُــنَّا (2)
خَيْــراً وَشَــراً أصَبْتُ ثَمَّا
تُحْــشَرُ فيه الجِنَــانُ زَفّــا
وتُحْــشَرُ النّــارُ فيه زَمّا
تَقُولُ هَاذي لِطَالِبِيهَا
هَيْتَ ، وَهَاذي لَهُمْ هَلُمّا
نَفْسِــي أولَى بِــأنْ أذُمّــا
مِنْ أمْرِهَا كُلُّ مَا اسْتُذِمّا
يا نَفْسُ كَمْ تَخْدَعِينَ عَمّا
بِلُبْــسِ داجٍ وآكلٍ لَمّــا
رَعيتِ مِنْ ذا الحُطامِ مَرْعًى (3)
جَمَــعْتِ أكْلاً لَــهُ وَذَمّا
وَيْحَكِ فَاسْتَيْقِظي لِيَــوْمٍ
تَغْــدُو لِمَا قَبْلَــهُ مُصِمّا (4)

---

(1) في الأصل كل من ألما ، وما في نسختنا أصح .
(2) في الأصل وهنا في نسختي يدي رهينا . وأعتقد أن الصواب ما أثبته هنا بتشديد النون اسم اشارة وهو في مقابل ثما بآخر البيت .
(3) في الأصل وفي نسختنا من ذي وما أثبتناه أولى .
(4) في الأصل يحي له كل ما أرما .وقد تقدمت وما أثبته هو ما في نسختي.

أَلَمْ تَرَيْ يُونُسَ بْنَ عَبْدِ
الْأَعْلَى غَدَا صَامِتًا مُصِمًا
وَالْمُزَنِيُّ الَّذِي إِلَيْهِ
نَعْشُو إِذَا دَهْرُنَا آدلَهَمَّا
أَخْفَى فُؤَادِي لَهُ عَزَائِي
لَكِنْ زَفِيرِي عَلَيْهِ نَمَّا
كَأَنَّمَا خَوْفًا فَخَافَا
أَوْ حُذْرًا جَاشِمًا فَصُمَّا (1)
أَقْبَلَ سَهْمٌ مِنَ الرَّزَايَا
فَخَصَّ أعْلَامَنَا وَعَمَّا
دَكْدَكَ مِنْأَذْرَا جِبَالٍ
شَامِخَةٍ فِي السَّمَاءِ شُمًّا
وَخَصَّنَا دُونَ مَنْ عَلَيْهَا
وَزَادَهَمًا بِنَا وَغَمًّا
قَدْ قَرُبَ الْمَوْتُ يَا ابْنَ أُمِّي
فَبَادِرِ الْمَوْتَ يَا ابْنَ أُمَّا
وَاعْلَمْ بِأَنْ مَا عَصَاكَ كَهْلًا (2)
مِنَ التُّقَى لَمْ يُطِعْكَ هِمًّا

(1) كذا في الأصل وفي نسختي وهو غير متزن ، ويتزن بحذف هما .
(2) بأن مخففة من الثقيلة ، وفي الأصل وأعلم بأن من عصاك جهلا مع ضبط أن بتشديد النون ولا يصح وما أثبتناه هو ما في نسختنا .

هُوَ الهُدَى والرَّدى فَإِمَّا
أتَيْتَ أتى الرَّدَى وإِمَّا
هَا أنَا ذا فَاعْتَبِرْ بِحَالِي
فِي طَبَقٍ مُوصَدٍ مُعَمَّى
قَدْ أسْكَنَتْنِي الذُّنُوبُ بَيْتًا
يَخَالُهُ الإِلْفُ مُسْتَحَمًّا
فَهَلْ إِلَى تَوْبَةٍ سَبِيلُ
تَكُونُ فِيهَا الهُمُومُ هَمًّا
فَنَشْكُرُ اللهَ لَا سِوَاهُ
لَعَلَّ نُعْمَاهُ أنْ تَتِمَّا
(يَا نَفْسُ جِدِّي وَلَا تَمِيلِي
فَأَفْضَلُ البِرِّ مَا اسْتَتَمَّا) (*)
(أوِ ابْحَثِي عَنْ فُلٍ بْنِ فُلٍ
تَرَيْهِ تَحْتَ التُّرَابِ رِمَّا)
(لَبِيسَ عَبْدًا يَرُوحُ بَغْيًا
مَعَ المَسَاوِي تَرَاهُ دَوْمًا)
(فِي غَمْرَةِ العَيْشِ لَا يُبَالِي
أحَمِدَهُ الجَارُ أَمْ أذَمَّا)

(*) ما بين القوسين أبيات ستة ثبتت في الأصل وليست في نسختنا .

(كَمْ بَيْنَ هَذا وَبَيْنَ عَبْدٍ
يَغْدُو خَمِيصَ الحَشَا هَضَمًا)
(يَقْطَعُ آنَاءَهُ صَلَاةً
وَدَهْرَهُ بِالصَّلَاحِ صَوْمًا) (*)
إِنْ بِهَذَا الْكَلَامِ نُصْحًا
إِنْ لَمْ يُوَافِ الْقُلُوبَ صُمًّا
يَارَبِّ لِي أَلْفُ أَلْفِ ذَنْبٍ
إِنْ تَعْفُ يَا رَبِّ فَاعْفُ جَمًّا
فَأَبْرِدْ بِعَفْوٍ غَلِيلَ قَلْبٍ
كَأَنَّ فِيهِ رَسِيسَ حُمَّى

ثالثا : إسم الشاعر ابن جدار ، بالجيم والدال ، كما في المغرب لابن سعيد ، وهو أعرف به ، وكما في عدة نسخ من (العقد) ، حسبما ذكر المصححون لطبعة اللجنة وفي بعضها ومنها نسختي ، ابن جرار بالجيم والراء ، ولا شك أنه تصحيف ، ويتأيد به كونه ابن جدار بالدال . . وقال الأستاذ عبد الغني حسن إنه في معجم الأدباء لياقوت ، ابن حذار بالحاء المهملة والذال المعجمة ، وهو كما قال في

(*) انتهت الزيادة .

المعجم طبعة الدكتور رفاعي ، وهذه الطبعة تصحيحها ليس بذلك ، وقد قال الأساتذة المصححون (للعقد) طبعة اللجنة ، إنه في إحدى روايتي ياقوت (2 ، 415) وفي الكندي (22 ، 224) ابن جدار بالجيم والدال ، وذلك في تعليقهم على إسم الشاعر ، وليس بيدي لا الطبعة التي يشيرون إليها من (العقد) ، ولا كتاب الكندي فأتحقق مما قالوا ، لكن الناقل أمين كما يقولون ، وبمقتضى ذلك ، يزيد إسم جدار رجحانا وتأكيدا ، وفي ترجمته من (المعجم) :

تعليق للناشر ، يحيل فيه على كتاب الوافي بالوفيات ، للصلاح الصفدي . وهو أيضا ليس بيدي ، فينبغي الرجوع إليه ، لينظر كيف ورد في إسم الشاعر .

هذا ما استطعت كتابته في الموضوع ، وأرجو أن يكون فيه فائدة وعون على تتبع ترجمة ابن جدار ، وآثاره الأدبية .

وألاحظ في الأخير ، أن ما أخذه الأستاذ راتب على العبارتين الواردتين في الصفحة الأولى ، من رسالة الإسم والمسمى ، وهما قولها : « ولو صح ذلك ، أن يكون

الإسم هو المسمى ، « وقولها » لا أعلم أحدا من أصحابنا من قال " غير لازم ، فإن ذلك من باب البدل " وهو كثيرا ما يقع في كلامهم . . . ●

« أنا الذي سَمَّتْنِي أمي حَيْدَرَة .. »

هل كان علي شاعرا .. ؟

راجعت التعقيب المفيد ، الذي كتبه الزميل الفاضل الأستاذ الفقيه حسن ، على بحثي الذي ألقيته في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، أثناء دورته الثامنة والعشرين المنعقدة في ربيع سنة 1962، بعنوان : لما به وألفاظ أخرى ، وقد جاء فيه ما يلي : « وذات مرة ، كنت أنشد هذه الأبيات التي تنسب تارة لسيدنا علي كرم الله وجهه ، وتارة للإمام الشافعي رحمه الله ، وهي مما قيل في الفرج بعد الشدة .

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى اليَأْسِ القُلُوبُ
وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ

الخ . . ومضمن تعليق الأستاذ ، أن هذه الأبيات للعلامة ابن السكيت ، كما نسبها إليه المؤرخ ابن خلكان ، وأنه لا يصح نسبتها لعلي بن أبي طالب ، لما جاء في القاموس ، من أن عليا لم يقل شعرا غير بيتين أوردهما في مادة ودق وهما :

تِلْكُمُ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِي لِتَقْتُلَنِي
فَلَا وَرَبِّكَ مَا بَرُّوا وَمَا ظَفِرُوا
فَإِنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتِي لَهُمُ
بِذَاتِ ودقين لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

وبعد شكري ، للزميل الفاضل ، على مزيد اعتنائه وما أتاحه لي من فرصة لمراجعة هذه الجزئية العرضية من بحثي ، أعترف أنني لم يكن وكدي هو إثبات نسبة الأبيات المذكورة لمن نسبت إليه ، وإنما ذكرت ما علق بذهني من نسبتها في المجامع الأدبية ، وكتب المختارات توسلا للمقصود بالذات ، وهو استعمال عبارة لما به ، والآن بعد إثارة هذه المسألة والنظر فيها على انفراد .

أرى (أولا) أن الإعتماد على ما في القاموس نقلا عن

المازني ، ونقله المرزباني في تاريخ النحاة ، عن يونس كما في تاج العروس ، من أنه لم يصح عن علي ، أنه تكلم بشيء من الشعر غير هاذين البيتين ، وإن صوبه الزمخشري ، لايصح أساسا لنفي هذه الأبيات ، ولا غيرها من الشعر عن علي رضي الله عنه ، لأنه قول غير مسلم ، وما زلنا نسمعه من علمائنا الذين يعودون ، فينشدون لعلي من الشعر الشيء الكثير ، وصاحب القاموس نفسه ، قد خالفه في مادة خيس ، فأنشد لعلي شعرا ينظر في هذه المادة من القاموس .

وقد تعقب هذا القول ، اللغوي المحقق محمد بن الطيب الشرقي الفاسي ، محشي القاموس بقوله على ما عند تلميذه الزبيدي صاحب التاج : ولعل سند ذلك قوي لديهم وإلا فقد ورد عنه :

أنَا الَّذِي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَة . . الأبيات ، ونقل عنه المصنف (يعني الفيروز بادى صاحب القاموس) في خيس شعرا ، وتواتر عنه : مُحَمَّدُ النَّبِيُّ أَخِي وَصِهْرِي . . . الأبيات (*) وغير ذلك مما كثر وشاع ، بحيث أن النفوس لا

(*) اكتفى بأول هذا الشعر من نظمه لشهرته ، وليرجع إليه من شاء في الديوان المنسوب إليه هو والأبيات المشار إليها قبله .

تطمئن إلى أنه لم يقل غير هذين البيتين ، لا سيما وقد قال الشعبي : كان أبو بكر شاعرا ، وكان عمر شاعرا ، وكان عثمان شاعرا ، وكان علي أشعر الثلاثة . ونقله الحافظ أبو عمر بن عبد البر ، في الإستيعاب في ترجمة مسطح بن أثاثة ، وذكر مثله جماعة ، ونسب إليه من أشعار الحكم وغيرها شيء كثير، انتهى كلام ابن الطيب . وزاد عليه الزبيدي قائلا : « ويروى أنه رضي الله عنه قال يوم خيبر :

دُونَكَهَا مُتْرَعَةً دِهَاقَا

كَأْسًا زُعَاقًا مُزِجَتْ زُعَاقَا

ثم قال : وقرأت في تاريخ حلب لابن العديم ما نصه : أخرج يعقوب بن شبة بن خلف بن سالم ، حدثنا وهب بن جرير ، عن ابن الخطابي محمد بن سواء ، عن أبي جعفر محمد بن مروان أن عليا قال :

لِمَنْ رَايَةٌ سَوْدَاءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا

إِذَا قِيلَ قَدِّمْهَا حُضَيْنُ تَقَدَّمَا

فَيُورِدُهَا فِي الصَّفِّ حَتَّى يُقِيلَهَا

حياض المنايا تقطر السم والدما

جَزَى اللهُ قَوْمًا قَاتَلُوا فِي لِقَائِهِمْ

لَدَى الْمَوْتِ قِدْمًا مَا أَعَزَّ وَأَكْرَمَا

رَبِيعَةَ أعْنِي أنَّهُمْ أهْــلُ نَجْــدَةٍ
وَبَأسٍ إذَا لاقَوْا خَمِيسًا عَرَمْرَمَــا

وأخــرج أيضــا، بسنده إلى أبي عــبــد الله ابراهيم بن محــمــد بن نفطويه ، والحــسن بن مــحــمــد بن ســعــيــد العــســكــري ، قـــال : ومما يروى لــعــلــي بن أبي طالــب (ض) ، لمن راية سوداء الأبيات ، قال وقال السدي كانت رايته حمراء بصفين ، فتأمل ذلك ، انتهى كلام الزبيدي .

وما نقله عن السدي ، لا يقدح في الشعر ، لأن الرايات في صفين ، كانت كثيرة ، لكل قبيلة راية ، وقد جاء في العقد لابن عبد ربه ، قال أبو عبيدة في التاج ، جمع علي بن أبي طالب رئاسة بكر كلها يوم صفين ، لحصين (*) ابن المنذر بن الحرث بن وعلة ، وجعل ـ ألويتها ـ تحت لوائه ، وكانت له راية سوداء يخفق ظلها إذا أقبل ، فلم يغن أحد في صفين غناءه ، فقال فيه علي بن أبي طالب :

لِمَنْ رَايَةٌ سَوْدَاءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَــا
إذَا قِيلَ قَدِّمْهَا حُصَيْنُ تَقَدَّمَــا
يُقَدِّمُهَا فِي الصَّفِّ حَتَّى يُزِيرُهَا
حِيَاضَ الْمَنَايَا تَقْطُرُ السَّمَّ وَالدَّمَا

(*) كذا في العقد والصواب حضين بالضاد كما سبق عن التاج

جَزَى اللهُ عَنِّي والْجَزاءُ بِكَفِّهِ
رَبِيعَةَ خَيْرًا مَا أعَفَّ وَأكْرَمَا

والبيت الأخير بهذا اللفظ من شواهد النحو ، وأصحاب الشواهد ينسبونه كذلك لعلي ، ثم قال في العقد وهو شاهد أيضا ، وكان من همدان في صفين ، بلاء حسن ، فقال فيهم علي بن أبي طالب (ض) :

لِهَمْدَانَ أخْلَاقٌ وَدِينٌ يُزَيِّنُهُمْ
وَبَأسٌ إذَا لَاقَوا وَحُسْنُ كَلَامِ
فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ
لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامِ

. . . والبيت الثاني مشهور من كلامه كثيرا ما يتمثل به الناس .

فهذه الروايات التي ذكرناها ، فضلا عن التي تركناها مما عند الطبري ، وابن كثير ، وابن الأثير ، ونصر بن مزاحم ، في كتابه عن وقعة صفين وغيرهم في هذه الأبيات وغيرها ، مما لم يورد الذين نفوا عن علي قول شيء من الشعر ، غير ذينك البيتين قليلا منها ولا كثيرا ، تجعلنا لا نقبل قولهم وقد تقرر في قواعد الأصول ، أن المثبت مقدم على النافي وأن من حفظ حجة على من لم يحفظ .

(ثانيا) أن نسبة هذه الأبيات ليعقوب بن السكيت ، لم ترد إلا في وفيات الأعيان لابن خلكان ، وهو المؤرخ المشهور بالتحقيق والتدقيق ، فيما ينقله ويبحثه من أشعار وأخبار وتراجم ، كما قال الأستاذ الزميل حقا وصدقا ، ولكن الجواد يكبو ، والصارم ينبو ، وليس الخطأ بعيب على ذي العلم (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما)، فهؤلاء علماء آخرون ترجموا لابن السكيت قبل ابن خلكان وبعده - وهم مثله علما وتثبتا - لم ينسبوا له تلك الأبيات ، ولا عرجوا على ذكرها بحال : أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد ، وأبو بكر الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين ، وياقوت في معجم الأدباء ، والسيوطي في بغية الوعاة ، وابن العماد في شذرات الذهب ، وقد يقال هنا : وأين قاعدتا المثبت مقدم والحافظ حجة ؟ والجواب أن هناك ما يمنع من الأخذ بهاتين القاعدتين ، فقد عارض هذه النسبة عند ابن خلكان ، ما جاء في كتاب الأمالي لأبي علي القالي ونصه : « قال وأنشدنا أبو بكر بن دريد ، قال أنشدنا أبو حاتم » :

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى اليَأْسِ القُلُوبُ
وَضَاقَ لِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ

وَأَوْطَنَتِ الْمَكَارِهُ وَاطْمَأَنَّتْ
وَأَرْسَتْ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ
وَلَمْ تَرَ لِانْكِشَافِ الضُّرِّ وَجْهًا
وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ
أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوْثٌ
يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ
فَمَقْرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

وكذلك جاء في أدب الدنيا والدين للماوردي ، قال : وأنشد ابن دريد عن أبي حاتم ، وأبو حاتم هذا هو سهل بن عثمان السجستاني من كبار الأدباء ، أخذ عنه ابن دريد ، والمبرد ، وتلك الطبقة ، ومات سنة ثمان وأربعين ومائتين ، عن سن تناهز التسعين ، فهو معاصر لابن السكيت الذي مات سنة 244 ، ولكنه أكبر منه سنا وأقدم مشيخة وأعلى كعبا في الأدب ، ورواية القالي عن ابن دريد للأبيات عنه تثبت أنها له ، وعلى الأقل إذا كانت عبارة : أنشدنا ليست نصا على أنها من نظمه ، فهي لا شك ليست من نظم ابن السكيت ، لأن أبا حاتم لا ينشد أبياتا لمعاصر له في مرتبة تلاميذه ، من غير أن يكون في ذلك خروج عن المألوف ،

ولفت لأنظار هؤلاء التلاميذ ، على أن الأ بشيهي في المستطرف ، لما أوردها قال : وقال أبو حاتم جزما بأنها له :

(ثالثا) وليس هذا فقط ، فإن الحافظ السيوطي في كتابه الأرج ، الذي لخص فيه كتاب ، الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ، وزاد عليه بعض الشيء ، قال « وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد ، من طريق أحمد ابن القاسم بن الريان البصري ، حدثنا أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن غبيط الأسجعي بمصر ، حدثني أبي عن أبيه عن جده ، قال علي بن أبي طالب (ض) :

إذا اشتملت على اليأس القلوب

وضاق لما بـه الصدر الرحيب

واوطنت المكارم واطمأنت

وأرست في أماكنها الخطوب

فكل الحادثات إذا تناهت

فموصول بها الفرج القريب

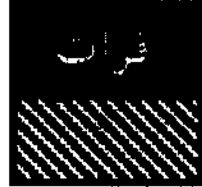
ثم قال هذه الأبيات أوردها ابن أبي الدنيا بلا سند ولا عزو إلى علي » يعني السيوطي أنه هو الذي خرجها من طريق ابن النجار معزوة إلى علي ، وعلى كل فإن ابن أبي الدنيا وهو من أهل القرن الثالث ، أنشدها وإنشاده لها ،

دليل على شهرتها وسيرورتها في زمن أبي حاتم وابن السكيت ، وابن النجار أسندها إلى علي ، وسند وإن كان منقطعا خير من لا سند ، فهل يكون ما في أمالي القالي ، وأدب الدنيا والدين ، من إنشاد ابن دريد لها ، عن أبي حاتم بلا عزو مما يرجح كونها لعلي ؟ ذلك ما نميل إليه ، وإن كنا ما نزال نشعر بحاجة المقام إلى مزيد تثبت .

هذه ، هي مراجعتنا لتعقيب الأستاذ الفقيه حسن ، نختمها بتحيته ، والإقرار له بالفضل في إثارة هذا الموضوع الطريف ، الذي يستحق كل ما يبذل فيه من جهد، ويكون ثوابه في صحيفته . ●

« ابن عنين يتهم بعض أشراف مكة بسرقة قماشه ، والشعر الذي قاله في ذلك . »

ديوان ابن عنين



في الجزء الرابع من المجلد الرابع والثلاثين من هذه المجلة ، القسم الأول من مقال مفيد للأستاذ العلامة عبد العزيز الميمني ، في وصف نسخة تاسعة من ديوان ابن عنين ، الذي نشره الأستاذ الرئيس الراحل خليل مردم بك ، رحمه الله سنة 1365 ، عن ثمان نسخ خطية توجد في مكتبات مختلفة من بلاد العرب وأوربا .

ولما كانت المخطوطة الهندية التي وصفها الأستاذ الميمني

تحتوي على 34 زيادة ، ما بين مقاطيع وقصائد فاتت النسخ المطبوع عليها ، وبعض أخبار وروايات لاتخلو استدراكاتها من فائدة ، فقد ضمن الأستاذ مقاله هذه الزيادات والإستدراكات خدمة للديوان المذكور ، وإفادة لعموم القراء .

وأثناء قراءتي للمقال ، لاحظت بعض الهفوات في بعض الأبيات ، مما لم يعن الأستاذ الميمني ، بتصحيحه أو لم يتوفر عليه بهمته المعروفة في التحقيق ، فأحببت أن أنبه عليها ، واخترت أن يكون ذلك بعد نشر أقسام المقال كلها . وإذا بالجزء التالي من المجلة يحمل تعليقا في الموضوع بقلم الأستاذ عارف النكدي عضو المجمع المحترم . فلما قرأته ، وجدته قد أشار إلى ماوقع في نفسي من تلك الهفوات ، وصححها على وجه الصواب فيها ، إلا بعضا منها غفل عنه ، أو لم يوافق نظري في تصحيحه نظره ، فها أنا أبادر بما عن لي في ذلك مشاركا الزميلين الكريمين في خدمة هذا الديوان ، الذي يعد من أنفس الآثار الأدبية في لغة الضاد .

في قصيدة ابن عنين الأولى التي استدركها العلامة الميمني (ص 589) من جزء المجلة المذكور، وقع هذا

البيت :

فَمَا الْخِضَمُّ الطَّامِي غَوارٌ بِــهِ
وَلَوْلَا الْغُيُوثُ الْهَوَاطِلُ النُّطَــفُ

وهو هكذا لا يتزن ، وقد صوبه الأستاذ النكدي ، بحذف الواو من (ولولا) ، ولكن هذا التصويب يقيم اللفظ ولا يقيم المعنى ، فالظاهر أن صوابه هكذا :

فَمَا الْخِضَمُّ الطَّامِي غَوارٌ بِــهِ
وَلَا الْغُيُوثُ الْهَــوَاطِلُ النُّــطَفُ

أي بحذف لو . والمعنى ، أنه بعد أن دعا طالبي العارفات إلى الإغتراب من ندى الممدوح في البيت قبله ، استشعر عظمة ذلك الندى ، فجعل البحر والمطر مما يصغر عنده ، فقال منكرا : (فما الخضم ؟)

وفي القصيدة الثانية من المستدرك (ص 590) جاء المطلع في المخطوطة الهندية هكذا :

حُلُومُكَ أَرْسَى مِنْ شَمَامٍ وَأَرْسَخُ
وَمَجْدُكَ أَعْلَى مِنْ (جِبَا) لِ وَأَشْمَخُ

وهذا يعني أن الحروف الواقعة بين المعقبين من زيادة المستدرك ، وقد نبه في الحاشية على أن محلهما من المخطوطة مأروض* . وعلق الأستاذ النكدي على هذا المطلع

(*) مأروض ، أي أكلته الأرضة ، وهي حشرة تأكل الخشب والورق .

بقوله : « على ما في هذا البيت من ضعف تزيده هذه (الحلوم) جمعا لحلم ، التي تصدرت في رأس هذا المطلع ، مع هذا ، لا نظن أن ابن عنين يقول مجدك أعلى من جبال ، يفضل مجد صلاح الدين على (جبال) ، وهي نكرة لا يصح معها تفضيل . » ثم رجع أن يكون أصل الكلمة جبلا معروفا مثل تعار أو فغار .

وملاحظة الأستاذ على هذا البيت في محلها ، فأما كلمة حلوم فيجوز أن بعض الناسخين أبدلها من كلمة حلم لما رأس البيت لا يتزن بحلم مفردا ، ويكون الشاعر قال : (حلمك أرسى من شمام) بثلم التفعيلة الأولى على مذهب القدماء .

والعروضيون وإن اختلفوا في جواز الثلم للمحدثين ، فإن هؤلاء لم يبالوا بخلافهم وارتكبوه كلما دعتهم لذلك ضرورة . وأما كلمة جبال فإني أوافق الأستاذ على عدم مناسبتها للمقام ، ولكنني لا أوافقه على أن يكون إسم الجبل المقصود تعارا أو فغارا أو غيرهما ، فما (لام) الكلمة فيه غير لام ، كيف وهذا هو السبب الذي جعل الأستاذ الميمني يقدر أنها (جبا) ل ؟ . .

والذي يظهر لي ، أن إسم هذا الجبل هو آلآل المذكور في

شعر النابغة : « يزرن ألالا سيرهن التدافع » ولا أذكر إسم جبل بهذا الوزن آخره لام إلا هذا . . وإليكم ما ورد عنه في معجم البلدان :

(ألال) بفتح الهمزة واللام وألف ولام أخرى بوزن حمام ، إسم جبل بعرفات . قال ابن دريد : جبل رمل بعرفات عليه يقول الإمام . وقيل ألال جبل عرفة نفسه . قال النابغة :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً
وَهَلْ يَأْتَمَنْ ذُو أُمَّةٍ وَهْوَ طَائِعُ
بِمُصْطَحِبَاتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ
يَزُرْنَ إِلَّا لاً سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ

وقد روى إلالا بوزن بلال . قال الزبير بن بكار : إلال هو البيت الحرام والأولى أصح « وأورد بعد ذلك اشتقاقه وشعره للشريف الرضى يقول فيه :

فَأَقْسِمُ بِالْوُقُوفِ عَلَى إِلَالٍ
وَمَنْ شَهِدَ الْجِمَارَ وَمَنْ رَمَاهَا

وهو يشهد لكونه الجبل .

وفي رحلة العلامة ابن رشيد الفهري السبتي المسماة « مليء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين

إلى مكة وطيبة » الموجود مخطوطها الوحيد بمكتبة « الأسكوريال » في إسبانيا ، وصف دقيق لهذا الجبل ، وضبط وثيق لإسمه ، أنقل هنا بعضه . قال رحمه الله : « وهي ، أعني هذه الصخرات ، عند الجبل الذي يعتني الناس بصعوده ويسمونه جبل الرحمة وجبل الدعاء ، وإسمه في لسان العرب إلال على وزن فعال بكسر الهمزة ، وذكره صاحب الصحاح في اللغة بفتح الهمزة ، وهو خلاف المحفوظ . وبالعكس ، ضبطه أبو علي في البارع وقال : هو جبل بعرفات . وكذلك حكاه بالعكس ، صاحب المجمل والمحكم وأبو عبيد وغيره من أئمة هذا الشأن . قال أبو عبيد : إلال بكسر أوله على وزن فعال ، كأنه جمع ألة ، جبل صغير من رمل عن يمين الإمام بعرفة قال النابغة :

بِمُصْطَحِبَاتٍ مِنَ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ
يَزُرْنَ إِلَالًا سَيْرُهُنَّ التَدَافُعُ

وقال طفيل :

فَزُرْنَ إِلَالًا لا يَنْحَبْنَ غَيْرَهُ
بِكُلِّ مُلِبٍّ أَشْعَثِ الرَّأْسِ مُحْرِمِ

وفي البارع الال جبل رمل بعرفات . هكذا ذكره بلفظ المفرد على وزن فعل . قال وكتب هشام ابن عبد الملك إلى

بعض ولده « أما بعد ، فإذا ورد كتابي فامض إلى الال فقم بأمر الناس » فلم يدروا أي ولاية هي ، حتى جاء أبو بكر الهذلي فقال له : هي ولاية الموسم ، وأنشده بيت النابغة المذكور : **يَزُرْنَ إلالًا سَيْرُهُنَّ التَّدافُعُ** .

وهذا الذي قال أبو عبيد ونقله كله صحيح ، إلا قوله إنه جبل رمل ، فليس كذلك ، وإنما هو جبل مرتفع من حجر صلد ، وقد ثبتت منه أجبل بعضها أكبر من بعض ، يسمى بعضها النبعة ، وبعضها النبيعة بالتصغير جريا على خيالات العرب في تسمياتها، كأنهما نبعتا منه « هذا الذي تعلق به الغرض من كلامه ، ولتنظر بقيته في الحلقة 18 من سلسلة " ذكريات مشاهير رجال المغرب " التي خصصناها بترجمة ابن رشيد » .

ومما يناسب ذكره هنا ، أن صاحب متن الكافي في علمي العروض والقوافي ، عند تعرضه لحركات القافية وذكره الإشباع قال : « وبعض حركة الدخيل ككسرة لام سالم وضمة فاء التدافع وفتحة واو تطاولي » فكتب محشيه العلامة الدمنهوري على قوله وضمة فاء التدافع ما يلي : « أي من قول النابغة يزرن الالاسيرهن التدافع . . والا أداة استفتاح وتنبيه ، ومقصوده الإخبار والتنبيه بأن هؤلاء

النســوة حين بروزهن من الخــدر ليس عندهن في الســيــر تدافــع ، كذا قــال بعـضـهم . لكن الذي في شـرح العـيني ، وألالا بفتح الهمزة جبل بعرفات ، وألالا مصدر أيضا ، يقال آل الفرس ألا كمد مدا بمعنى أسرع . فتأمل » .

وإنما نقلت كـلام الدمنهـوري هنا ، لأني رأيت بعـض من ألفَ في العـروض حـديثـا نقل خطأه وأغـفل صـوابه ، وإنما التوفيق من الله .

ونرجع إلى قصيدة ابن عنين فنقرأ فيها هذا البيت :

يلَامُ علَى بَذْلِ الْمَوَاهِبِ والنَّدَى
وَيلْحَى علَى إِحْسَانِهِ وَيَــوَبِّخُ

ولعل يربخ هذه ، تحريف مطبعي عن يوبخ بالواو .

وبعده : فيعرض اعراض الكريم بسمته .

وعليــه تعليق يقــول إن الأصل بســمــه . وفي ظني أن إصلاحه (بسمعه) يكون أوفق .

وفي صفحتي (594 و 595) أورد الأسـتـاذ حكاية ابن عنين ، التي اتهم فيها بعض أشراف مكة بسرقة قـمـاشه ، والشـعـر الذي قـالـه في ذلك ، وأعـرف رواية أخرى لهـذه الحكاية ، ذكرها الشريف محمد بن الصادق بن الريسون ، في كتابه : « فتح العليم الخبير في تهذيب النسب العلمي

بأمر الأمير » (مخطوط خاص)وأنا أنقلها عنه تتميما للفائدة ، قال : « وفي جواهر العقدين في فضل الشرفين ، شرف العلم الجلي والنسب العلي للإمام جمال الدين عبد الله الحسني السمهوري ، رضي الله عنه ورحمه ، ما نصه :

ومن العجب أن أبا المحاسن نصر الله ابن عنين الشاعر ، توجه إلى مكة المشرفة ومعه مال وقماش ، فخرج عليه بعض الأشراف من بني داود ، المقيمين بوادي الصفراء فأخذوا ما كان معه ، وجرحوه فكتب قصيدة إلى الملك العزيز طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، وقد كان أخوه الملك الناصر ، أرسل إليه يطلبه ليقيم بالساحل المفتتح من أيدي الإفرنج ، فزهده ابن عنين في الساحل ورغبه في اليمن وحرضه على الأشراف المذكورين ، وأول القصيدة :

أَعْيَتْ صِفَاتُ نَدَاكَ الْمصْقَعَ اللَّسنا (*)
وَجُزْتَ فِي الْجُودِ حَدَّ الحسن والحسنا
وَمَا تُرِيدُ بِجِسْمٍ لَا حَيَاةَ لَهُ
مَنْ خَلَّصَ الزُّبْدَ مَا أَبْقَى لَكَ اللَّبَنَا
ولاَ تَقُلْ سَاحِلُ الْإِفْرَنْجِ أَفْتَحُهُ
فَمَا يُسَاوِي إِذَا قَايَسْتَهُ عَدَنَا

(*) في الديوان ، أعيت وهي أشعر.

وَإِنْ أَرَدْتَ جِهَادًا فَادْنُ بِسَيْفِكَ مِنْ
قَوْمٍ أَضَاعُوا فُرُوضَ اللَّهِ وَالسُّنَنَا
طَهِّرْ بِسَيْفِكَ بَيْتَ اللَّهِ مِنْ دَنَسٍ
وَمَا أَحَاطَ بِهِ مِنَ خِسَّةٍ وَخَنَا
وَلَا تَقُلْ إِنَّهُمْ أَوْلَادُ فَاطِمَةَ
لَوْ أَدْرَكُوا ءالَ حَرْبٍ حَارَبُوا الْحَسَنَا

فلما نظم هذه القصيدة رأى في النوم مولاتنا وسيدتنا فاطمة رضي الله عنها وهي تطوف بالبيت ، وسلم عليها فلم تجبه ، وتضرع إليها وتذلل وسألها عن ذنبه الذي أوجب ذلك ، أنشدته رضي الله عنها :

حَاشَا بَنِي فَاطِمَةَ كُلَّهُمُ
مِنْ خِسَّةٍ تَعْرِضْ أَوْ مِنْ خَنَا
وَإِنَّمَا الْأَيَّامُ فِي غَدْرِهَا
وَفِعْلِهَا السُّوءَ أَسَاءَتْ بِنَا
فَتُبْ إِلَى اللَّهِ فَمَنْ يَقْتَرِفْ
إِثْمًا بِنَا لَا يَأْمَنَنْ مَا جَنَى
إِنْ أَسَا مِنْ وُلْدِي وَاحِدٌ
يُجْعَلْ كُلُّ الذَّنْبِ عَمْدًا لَنَا
فَكُلُّ مَا نَالَكَ مِنْهُمْ ، فِدًا
تَلْقَى بِهِ فِي الْحَشْرِ مِنَّا مُنَى

فقال أبو المحاسن ابن عنين فانتبهتُ من منامي مرعوبا جزعا وقد أكمل الله عافيتي من الجرح والمرض ، فكتبت الأبيات وحفظتها ، وتبت إلى الله تعالى وقطعت تلك القصيدة وقلت :

عُذْرًا إلَى بِنْتِ نَبِيِّ الْهُدَى
تَصْفَحُ عَنْ ذَنْبِ مُحِبٍّ جَنَى
وَتَوْبَةٍ تَقْبَلُهَا مِنْ أَخِي
مَقَالَةٍ تُوقِعُهُ فِي الْعَنَا
وَاللهِ لَوْقَطَعَنِّي وَاحِدٌ
مِنْهُمْ بِسَيْفِ الْبَغْيِ أَوْ بِالْقَنَا
لَمْ أَرَ مَا يَفْعَلُهُ سَيِّئًا
بَلْ إِنَّهُ فِي الْفِعْلِ قَدْ أَحْسَنَا

ففي هذه الرواية زيادة بيت في القصيدة الأصلية على ما في الديوان وهو قوله : (ولا تقل ساحل الإفرنج البيت) وسقوط بيت من القطعة المنسوبة للسيدة فاطمة وهو : (وأكرم لأجل المصطفى الخ)، واختلاف في ألفاظ بعض الأبيات كالبيت الأخير من القطعة ، التي اعتذر بها ابن عنين . وهو على هذه الرواية واضح المعنى ، صحيح التركيب لا يرد عليه شيء .

وفي (ص 598) بيت مستدرك هو :

فَالمُلكُ عَيْنُ خَاطِبَتِهُ كَأنْ بِهَا
رَمَدًا فَكَانَ عَرَاهُا أثْمِدا

ويرى الأستاذ النكدي أنه غير متزن ، ويقيمه على هذا النحو :

فالملك عين خاطبته كأنها
رمدا فكان لها عراها أثمدا

أي رمداء ، مؤنث أرمد بالقصر للضرورة . ولو قرأ الأستاذ (كأن) بالتخفيف لما اختل وزن البيت ، ولا احتاج إلى هذا الإصلاح . وكأن مخففة ، تعمل عملها مشددة وشاهده عندهم قول الشاعر :

وَيَوْمَ تُوَافِينَا بِوَجْهٍ مُقَسَّمٍ
كَأنْ ظَبْيَةٍ تَعْطُو إلَى وَارِقِ السَّلَمِ ●

« قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ المـاءِ مِنْ سَقَمِ .. »

عيون رمد



الشرق الأوسط الغراء في عددها (2201)، بصفحة الثقافة « باب من عيون الشعر » تحت عنوان : (محمد منة الله)، قطعة شعرية للسيد الحميري ، الشاعر المعروف برفضه ومغالاته في التشيع ، وقد كان هذا العنوان المقتبس من آخر بيت منها ، حريا بأن يضفي عليها حلة من القبول ويروج لها بين القراء الذين لا يدركون خبأها ، لولا أنها لا تخرج في مضمونها عن غرض الهجاء لبني تيم ، مما يجعل القارئ يشيح عنها بوجهه ، ولا يرى

فيها ما يسوغ وصفها بأنها من عيون الشعر .

هذا إذا كان القارئ غير عارف بمذهب الشاعر، ومن يهجوهم من بني تيم ، وهم تيم قريش ، أعني تيم بن مدرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر ، رهط أبي بكر الصديق (ض) ، وإلا فإنه يتعجب من اختيار الشرق الأوسط لهذه القطعة ونشرها في باب من عيون الشعر ، وهي الجريدة العربية الدولية المعروفة باعتدالها واتزانها ، والتي يصدرها ناس من خيرة أهل السنة والجماعة ، من إخواننا السعوديين . فهي هجاء شنيع للرجل الذي هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها (ص)، والمشار إليه في الكتاب العزيز بقول الله سبحانه (ثاني اثنين إذ هما في الغار) ، فلا شك أنها غفلة من محرر هذا الباب ، إن لم تكن دسيسة من أحد ذوي العيون الرمد التي لا تبصر ما يبصره الناس .

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ
وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

ولنتتبع أبيات القطعة ، لنرى ما فيها من الشتيمة التي لو برئت من قصد الخليفة الأول ، لكانت مما ينبغي التنزه عنه ، فكيف هو (ض) المقصود بالذات .

. . يقول السيد الحميري :

أخوَى بَنِي تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ أنهُمْ
شَرُّ البَرِيَّةِ آخرا وَمُقَدَّمَا
إِنْ تُعْطِهِمْ لَمْ يَشْكُرُوا لَكَ نِعْمَةً
وَيُكَافِئُوكَ بِأَنْ تُذَمَّ وَتُشْتَمَا
وَإِنْ ائتَمَنْتَهُمْ أوْ اسْتَعْمَلْتَهُمْ
خَانُوكَ (*) واتَّخَذُوا خرافَكَ مَغْنَمَا
وَلَئِنْ مَنَعْتَهُمْ لَقَدْ بَدَأُوكُمُ
بِالْمَنْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أظْلَمَا

وبعد هذا التعميم يقول مخصصا :

مَنَعُوا تُرَاثَ مُحَمَّدٍ أعْمَامَهُ
وَبَنِيهِ وابْنَتِهِ عَدِيلَةِ مَرْيَمَا

وهنا يمس مسا صارخا الصديق (ض)، وينبزه بما هو حري أن يمتدح به ، لأنه إنما نفذ ما أمر به الرسول (ص)، وهو شريعته وشريعة الأنبياء قبله ، كما جاء في الحديث الصحيح عنه (ص) « نحن معاشر الأنبياء لانورث ، ما تركنا صدقة » ، وفي البخاري أن فاطمة والعباس رضي الله عنهما أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى

(*) في الجريدة ، خافوك .

الله عليه وسلم ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر ، فقال لهما أبو بكر : والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله (ص) يصنعه إلا صنعته ، يعني في قبضه لهذه الأرض وصرفه منها على أهله (ص)، وكذلك فعل عمر بعده بمدة ، ثم دفعها إلى علي والعباس بهذا الشرط . .

وجاء في رواية لهذا الحديث عند البخاري أن أبا بكر قال : « والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله (ص) أحب إلي أن أصل من قرابتي » .

ثم يقول الشاعر :

وَتَآمَرُوا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْتَخْلَفُوا
وَكَفَى بِمَا فَعَلُوا هُنَالِكَ مَأْثَمَا

وهذه أيضا إحدى دعايات الروافض ، فإن بيعة أبي بكر واستخلافه كانت بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم ، حتى علي كرم الله وجهه الذي يقول المؤرخون أنه إنما بايع بعد وفاة السيدة فاطمة ، ثبت من طرق صحيحة أنه بايع مع الناس أولا ، وكانت بيعته بعد وفاة زوجه تجديدا لبيعته الأولى ، إذ كان لما غاضبت فاطمة أبا بكر ، ربما تغيب عن مجلس الخليفة أخذا بخاطرها . وأما طعن الشاعر في فعل

أبي بكر مدة خلافته ، فيكفي في رده أنه أنفذ جيش أسامة وقاتل المرتدين وجمع المصحف ، وهذه مواقف يعرف أهميتها جمهور الأمة .

ويختم الشاعر بقوله :

لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ أنْعَامَهُ
أفَيَشْكُرُونَ لِغَيْرِهِ أنْ أنْعَمَا
واللهُ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِمُحَمَّدٍ
وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الجنوبَ وأطْعَمَا

وهذا إتهام مردود بقوله (ص) في أبي بكر كما في الصحيح « إن من أمن الناس علي في ماله وصحبته أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن اخوة الإسلام » . والأحاديث في فضله كثيرة فلا نطيل بها ، والمقصود تصحيح الخطأ الذي وقعت فيه الشرق الأوسط بنشر هذا الشعر المدخول ، والتنويه به وجعله من عيون الشعر ، وذلك فيما نعتقد عن غير قصد ، ولذلك كان التصحيح في شقيقة الشرق الأوسط (المسلمون) .

(نبذة عن السيد الحميري) هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة أبو هشام ، كان شاعرا محسنا كثير القول

إلا أنه رافضي زائغ عن القصد ، كان يرى رجعة محمد بن الحنفية إلى الدنيا ، وأنه لم يمت ، وأنه في جبل رضوى بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان تجريان بماء وعسل ، ويعود بعد الغيبة فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ويقال إنه اجتمع بجعفر الصادق ، فعرفه خطأه وأنه على ضلالة فرجع وأناب ، وكان كثير المدح لبني هاشم وءال البيت ، وقال له بشار بن برد : « لولا أن الله تعالى شغلك بمدح أهل البيت لا فتقرنا » ، يعني لجودة شعره وعدم استطاعتهم منافسته ، (باختصار عن الوافي بالوفيات للصفدي) . ●

«الحديث الذي ورد فيه تعبير « لمـــا به » ، من الشـــواهد التـــي استدركتها في تعليقي على هذا البحث . »

« لما به .. »

في الجزء الثاني ، من المجلد الثامن والأربعين لمجلة المجمَّع الغراء ، كلمة طيبة للأستاذ شكر الله بن نعمة الله ، أشار فيها إلى بحثي في تعبير لما به تصحيحا وتبيينا لمعناه ، والشواهد التي أتيت بها على ذلك ، وما تفضل به بعض الزملاء من مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فأطلعوني عليه من شواهد أخرى ، تؤيد نتيجة البحث ، ثم استدرك حضرته شواهد جديدة ، أصبح مجموع الشواهد بحسبها ثمانية عشر شاهدا .

وإني أشكر الأستاذ شكر الله ، على عنايته واهتمامه بهذا الموضوع ، خدمة للغة العربية وتجلية لغوامض نصوصها ، وفي الوقت نفسه ، أحب أن أنبه إلى أن أبيات علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، ليست من شواهد هذا التعبير ، كما أشرت إلى ذلك في البحث ، وقلت : إني لما تذكرتها بقيت أتعلل بها ، متذرعا بالصبر الذي تحث عليه ، وغير يائس من الوقوف على مثال يكون شاهدا نصا في المسألة حتى وجدته . ولذلك ينبغي حذف هذه الأبيات من شواهد التعبير ، وقد نبهت على ذلك في مناسبة أخرى ، ولكن يظهر أن هذا التنبيه لم يتنبه له .

وإذا كنت أستبعد هذا الشعر من الشواهد ، فإني كذلك أتوقف في شاهدين آخرين ، هما نص كتاب الهفوات النادرة ، لأنه قد يكون كما هو ، لا تصحيف فيه ، فلا يصح الإستشهاد به ، والنص الذي نقله الأستاذ شكر الله من كتاب مناقب الشافعي للبيهقي ، لما فيه من الإضطراب .

ثم إن الحديث الذي ورد فيه هذا التعبير ، هو من الشواهد التي استدركتها أنا في التعليق على بحث لما به ، حين صدر في كتابي « العصف والريحان » وهو

حديث وقفت عليه في كتاب « علل الحديث » لابن أبي حاتم ، وفيه أن النبي (ص) عاد امرأة من خثعم . فقال لها كيف تجدينك ؟ قالت ما أراني إِلاّلِمَا بِي الحديث .

كما أني وقفت على حديث آخر في كتاب الأدب المفرد للبخاري ورد فيه هذا التعبير ، وهو عن زيد بن أرقم قال رمدت عيني فعادني النبي (ص) ثم قال يازيد لو أن عينك لما بها كيف كنت تصنع ؟. الحديث .. واستدركت في التعليق المشار إليه آنفا أبياتا لابن زيدون يقول فيها :

اللَّهُ يَعْلَمُ أنَّني
أصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي

وأستدرك الآن بيتا للشريف الرضى من قصيدة يقول فيه :

أشْكُو إلَيْكَ وَمِنْ هَوَاكَ شِكَايَتِي
وَيَهُونُ عِنْدَكَ أنْ أبِيتَ لِمَا بِي

وورد في الديوان « كما بي » تصحيحا لا شك فيه .

وقد كتب إلي غير واحد من أصدقائي وتلاميذي بشواهد أخرى صعب،تتبعها ، والمهم أن الشواهد في المسألة كثيرة جدا ، وبعد وضوح معنى التعبير وتصحيح لفظه ستظهر شواهد أكثر من أن تحصى ، وبالله التوفيق . ●

«فكم من النوابغ ظهروا في عصور الإنحطاط ، ومايزال التاريخ لم ينصفهم »

ديوان اليوسي و « النقد الحديث »

قرأت في جريدة " الشرق الأوسط " بتاريخ 24 ـ 5 ـ 83 مقالا بعنوان : شاعر سيء الحظ للأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي ، تناول فيه بالنقد المبتسر ديوان شعر أبي علي اليوسي ، الذي عناه بالشاعر السيء الحظ .

وقد تعجبت من إقدام الكاتب وهو شاعر معروف ، على نقد ديوان كامل بمجرد تصفحه ، وإبداء ما أبداه من الآراء النابية في محتواه الشعري الغزير ، من قصائد ومقطعات

تبلغ أبياتها عدة آلاف ، وذلك في مقال لا يغطي ربع صفحة من الجريدة المذكورة .

هذا، وهو لا يعرف اليوسي ولا سمع به من قبل ، ولا يعلم شيئا عن أعماله وآثاره العلمية والأدبية ، بل لا يحقق حتى إسمه ، فقد ظن أنه هو اليوسي ، أي نسبه الذي ينميه إلى قبيلة (آيت يوسي) وإنما دلّه عليه الأستاذ جال بيرك الباحث الفرنسي ، المهتم بالدراسات المغربية والعربية ، فقد أعاره ديوانه المطبوع على الحجر بفاس ، لبعض الوقت ، ليدلي إليه برأيه فيه كما جاء في المقال .

والأستاذ بيرك قديم الإهتمام باليوسي ، وقد كان كتب إليّ في الأربعينات ، يسألني عما ورد في مقدمة كتابي المنتخب من شعر ابن زاكور ، من تأثير اليوسي على ابن زاكور ، واقتباسه الذوق الشعري منه ، مع أنه ليست له دراسة إلا بجنوب المغرب وفي الزوايا ، ولم يعاشر الأوساط العلمية بمدن الحضر كفاس وسلا ، إلى آخر ما جاء في سؤاله الذي أجبته عنه بما نشر بعد ذلك في كتابي (خلّ وبقْل) . كما كتب هو بعد ذلك دراسة عن اليوسي بالفرنسية مطبوعة معروفة .

ولعله أراد أن يعرف رأي شاعر مصري حديث في شعر

اليوسي ، وهو الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي ، المقيم في باريس ، فكان أن دلاه بأسوإ رأي يقال في شاعر من أدنى طبقة . والأستاذ بيرك معذور في سؤاله وإلحاحه على معرفة قيمة شعر اليوسي ، لما قاله من أنه ، أي اليوسي ، إنما درس في جنوب المغرب وفي الزوايا ، ولم يدرس في حواضر المغرب ، ولما لم يقله وهو أن اليوسي بربري الأصل ، فهو يظن أن البربري لا يبلغ في العربية مبلغ الفحول ، حتى يكون شاعرا مجيدا ، وسؤاله يعني عدم تمكنه من العربية واعترافه بضعفه فيها ، فهو يستحق التقدير من هذه الناحية ، وإن كان الجواب لم يبل له غليلا بل ربما زاده بلبلة وحيرة في حل الإشكال القائم عنده بشأن أدب اليوسي .

إننا نعتقد أن الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي ، لم يتمكن من قراءة ديوان اليوسي ، لأنه كما قال مطبوع على الحجر أي بالخط المغربي ، وإخواننا في الشرق كثيرا ما يشتكون من انغلاق الخط المغربي عليهم ، كما ينغلق علينا الخط المشرقي ، لا سيما المدمج منه ، وكم يقع المحققون لبعض المخطوطات المغربية ، في أخطاء القراءة المحرّفة التي نلاحظها عليهم ، وإذا كان هذا بالنسبة لمن يحققون الكتب

ويلزمونها زمانا قبل الإخراج ، فكيف من ينظر نظرة عجلى في ديوان يحتوي مآت القصائد والأبيات ، تركه صاحبه عنده « بعض الوقت » ليعرف رأيه فيه ؟ وقد جعل الكاتب سبيله إلى إقامة الديوان ، كونه من إنتاج العصر الذي يعرف في تاريخ الأدب العربي بعصر الإنحطاط ، « حيث ضعفت السليقة وشاعت الركاكة وصارت القصيدة خزانة للمحسنات والزخارف البالية » .

وهذا حكم لا يصح إطلاقه على كل من عاش في العصر المذكور ، فكم من النوابغ ظهروا في عصور الإنحطاط ، وما يزال التاريخ لم ينصفهم ، ولم تخضع البلاد العربية كلها في كل وقت لهذا الحكم الجائر ، فهناك استثناءات لا بد من مراعاتها ، ونشير إلى ما قاله الدكتور طه حسين ، فيما علق به على كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي ، مما يتصل بهذا الموضوع ، ولفظه : « والغريب أني قرأت كل ما في هذا الكتاب من المختارات في العصور المغربية المختلفة إلى أواسط القرن الهجري الماضي ، فلم ألاحظ فيه تكلفا ولا تصنعا ولا التزاما للبديع على كثرة ما يشيع البديع والتزامه في كثير من شعر المشرق ونثره ، ولا سيما في العصور المتأخرة (*).

* كتاب خواطر لطه حسين 117

فهذا كلام ناقد أدبي كبير لا يتهم في اطلاعه ولا في ذوقه ، وهو من المشرق وليس من المغرب ، وشاعرنا اليوسي داخل في الزمن الذي حدده بأواسط القرن الهجري الماضي ، لاسيما والكتاب المذكور يشتمل على كثير من المختارات الشعرية لليوسي في الأغراض المختلفة . فالدكتور طه يستثني الأدب العربي في المغرب ، ومنه شعر اليوسي ، من الحكم المسمط الذي أصدره الأستاذ حجازي على الأدب العربي عموما ، في العصور المتأخرة التي تسمى عصور الإنحطاط .

ويذكر الكتاب أن اليوسي المجهول الآن ، كان مشهورا في زمنه ، وأن شهرته تخطت المغرب إلى المشرق ، فقد ذكره الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار إلى آخر ما قال ، ولم يكن اليوسي مجهولا الآن ولا فيما مضى ، ولا سيما في المغرب ، ومن لم يعرفه بأدبه عرفه بعلمه وتأليفه ومواقفه السياسية في النصح للسلطان ومداخلته للعامة واهتمامه بمصالحها .

ثم يقول عن شعره : « على الرغم من أن شعر اليوسي ينتمي في مجمله إلى شعر العصر الذي وصفناه ، فهو شعر متفاوت وهو ينحط في بعضه عن المتوسط ، وقد يرتفع

أحيانا ، ويصنفه إلى مستويين : مستوى يغلب عليه الطابع الشخصي ، ويمتاز بشيء من البساطة والطلاقة ، وهو يتحقق في بعض قصائد الغزل والتأمل والفخر والهجاء ، وذكر مثالا عليه قوله في العلاقة بين الزهر والغمام .

إنَّ بَيْنَ الغَمَامِ وَالزَّهْرِ الغَضِّ
لَرَحْماً قَدِيمَةً وَإِخَاءَ
بَانَ إِلْفٌ عَنْ إِلْفِهِ فَتَوَارَى
فِي الثَّرَى ذَا وَذَاكَ حَلَّ السَّمَاءَ
فَإِذَا مَا الغَمَامُ زَارَتْ جَنَابًا
آذَنَتْ فِيهِ بِالْحَبِيبِ اللِّقَاءَ .

وهي قطعة جميلة من ثمانية أبيات ، وسماها الكاتب قصيدة وقد علق عليها بما يلي :

« وفي هذه الأبيات سذاجة في التصور والنظم ، وفيها أيضا أخطاء لغوية ونحوية ، فالغمام مفرد مذكر وليس جمعا أو مؤنثا . ونحن لا نقول أذنت بالحبيب اللقاء بل أذنت الحبيب باللقاء ، ثم إن الإضطرار إلى تسكين الحاء من رحم ثقيل جدا . ومع ذلك لا تخلو الأبيات من بساطة وانفعال بالطبيعة »، ولا نناقشه في دعوى سذاجة التصور

والنظم ، فلن نتفق مع الأستاذ في هذا المنحى ، وهو من أعلام الشعر الحديث الذي يذهب مذهبا غير ما يكون عليه الشعر الأصيل . ولكن ننظر في الأخطاء اللغوية والنحوية التي نسبها إلى هذه الأبيات بغير حق : « قوله إن الغمام مفرد مذكر وليس جمعا أو مؤنثا ، غير صحيح ، بل هو اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين مفرده بسقوط التاء ، فإذا قلت غمامة نقص معناه وصار دالا على الواحد ، وإن حذفت صار دالا على الجنس فزاد معناه ، وهو يذكر ويؤنث ، ومثله كلمة وكلم ، ونبقة ونبق ولبنة ولبن ونخلة ونخل ، ومن تذكيره قوله تعالى (اعجاز نخل منقعر) ومن تأنيثه قوله عز وجل (اعجاز نخل خاوية) .

وقوله نحن لا نقول أذنت بالحبيب اللقاء بل أذنت الحبيب باللقاء ، فيه نظر ، من حيث أن صحة القول تتوقف على معنى أذن ، فهي تكون للإذن أي الإباحة ، وبمعنى علم وسمع ، وإذا مدّت فهي بمعنى الإعلام ، وعلى كل قوله بالحبيب ، متعلق باللقاء الذي هو معمول الفعل ، فما قاله غير وارد . وجعله تسكين حاء الرحم من الضرورة الثقيلة ليس بصحيح ، فهو إلى الرحم لغة بوزن الجسم ، أنشد ابن سيده :

خُذُوا حِذْرَكُمْ يَا آلَ عِكْرِمٍ وَاذْكُرُوا
أَوَاصِرَنَا ، وَالرَّحْمُ بِالْغَيْبِ تُذْكَرُ

وقال الأعشى :

إِمَّا لِطَالِبِ نِعْمَةٍ يَمَّمْتَهَا
وَوِصَالِ رِحْمٍ قَدْ بَرَدْتَ بِلَالَهَا

ولشاعر معاصر من قصيدة يودع المدينة المنورة :

فَلاَ ظَعْنَ بَعْدَ الْيَوْمِ وَلاَ لِعَوْدَةٍ
وَلاَ وَصْلَ رِحْمٍ قَبْلَ مُجْتَمَعِ الرَّحْمِ .

وعليه ، فلا أخطاء في لغة أو نحو بهذه الأبيات ، كيف واليوسي من أئمة اللغة ، وكتاباته فيها تنبىء عن تضلعه وارتفاع طبقته عن مثل هذه الهفوات .

ويذكر الكاتب المستوى الثاني لشعر اليوسي في نظره فيقول : « المستوى الآخر في شعر اليوسي تبدو فيه المفردات غريبة مستعارة ، والتعبير فيه تقريري جاف رغم الزخرفة والتحسين بالجناس و التورية والتزام ما لا يلزم ، والأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية أكثر . وغالبا ما يكون هذا في الإخوانيات والمدائح حيث يطيل الشاعر دون قدرة ، كما نجد مثلا في قصيدة يهنىء فيها صديقا له بالعودة من حجته الثانية ، فقد بلغ عدد أبياتها 543 بيتا لم ينج فيها من التكلف والخطأ إلا القليل النادر » .

ولا ندري إن كان هذا نقدا أو شتما ، بلور فيه الشاعر

حجازي رأيه في شعر اليوسي ، أو على الأصح في الشعر العربي الأصيل في العصور المتأخرة ، التي يدعوها بعصور الإنحطاط ، من غير تخصيص لليوسي وشعره ، فهو إذن النقد الحديث يَرُصُّ ألفاظ الطعن والتجريح رصّا ، ويسلّمُ مصطلحات البديع التي درج النقاد على استنكار تكلفها ، فيتوصل بها إلى النيل ممن لم يستكرهها أو لم يستعملها إلا نادراً ، ثم يضيف إلى ذلك ادعاء الوقوع في الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية بكثرة ، وياليته بيّن هذه الأخطاء ولو على سبيل الإجمال كما فعل في الأبيات السابقة من غير أن يحتج لها ويستشهد بقاعدة أو حكم أو نص مقبول .

والقصيدة التي أشار لها الأستاذ أحمد عبد المعطي حجازي ، هي دالية اليوسي المشهورة التي مدح بها شيخه ، وليس صديقه فقط ، إمام أهل السنة في عصره الشيخ محمد بن ناصر الدرعي ، وهي على غرار دالية البوصيري التي مدح بها شيخه الإمام أبا العباس المرسي ، أو قل عارضها بها ، فبذّتها وقضت لليوسي بالسبق كما يظهر ذلك بالمقارنة بينهما ، وهي قصيدة عامرة الأبيات جمعت من فنون الأدب الشيء الكثير ، كالنسيب والأمثال والحكم

والوصف والمدح والتهنئة ، إلى شرح الملكة الإنسانية وآداب السلوك ومنازل السائرين في فلسفة التصوف ولا يوجد فيها رويّ ، مكرر ، ولا ضرورة تستنكر ، ومن محاسنها كما قال صاحبها أن نسيبها جار على أسلوب الشعراء القدماء من بكاء منازل الأحباب والأثر ، على التحقيق لا على مجرد الفرض ، كما هو حال الشعراء المحدثين (*) وهذا مطلعها :

عَرِّجْ بِمُنْعَرَجِ الهِضَابِ المُوَرَّدِ
بَيْنَ اللِّصَابِ وَبَيْنَ ذَاتِ الأَرْمَدِ
وَاجِزْ مِنَ الجِزْعِ الَّذِي بِحَضِيضِهِ
أَحْدَاثَ أَصْدَاءِ العَشِيرِ الهُمَّدِ
وَارْبَعْ عَلَى الرَّبْعِ المُحِيلِ هُنَيْئَةً
إِنَّ الرُّبُوعَ رَبِيعُ قَلْبِ الأَكْمَدِ

ومن مدحها :

غَيْثَ الوَرَى الشَّيْخَ ابْنَ نَاصِرِ الَّذِي
نَصَرَ الإِلَهُ بِهِ شَرِيعَةَ أَحْمَدِ
وَأَعَادَ وَجْهَ الدِّينِ أَبْيَضَ مُسْفِرًا
بَهِجًا مُقَرَّ أَعْيُنِ كُلِّ مُوَحِّدِ
وَأَقَامَ سَمْكَ بِنَائِهِ حَتَّى سَمَا
فَوْقَ السِّمَاكِ عَلَى الأَوَاسِي الوُطَّدِ

* كتاب أدب الفقهاء، ص 146

ومنهـا في وصف الوضع الإجتــمــاعي والديني في بلاد الإسلام على ذلك العهد :

وافَيْتَ والبِدَعُ الحَوادِثُ قَدْ وَقَـــتْ
ظُلُمَاتُهَا والجَهْلُ وارِي الأَزْنُـــدِ

والدِّيـنُ مَـطْمُوسُ المَعَالِمِ والهُدَى
بيضُ الأَنُوقِ ولُقْطَةٌ لَمْ تُنْشَـدِ

والسُّنَّــةُ الغَــرَاءُ قَفْــرٌ مُــوحِـشٌ
مَا فِيهِ مِنْ هَادٍ ولَا مِنْ مُهْتَدِ

نَشِبَتْ بِضَبْعَيْهَا مَخَــالِبُ ضَيْــغَــمٍ
مِنْ مَألَفِ العَادَاتِ عَادٍ مُـخْـــرِدِ

وَمَحَا المُحَاقُ بُدُورَهَــا فَتَكَــنَّفَــتْ
مُقَلُ النُّهَى ظَلْمَاءُ لَيْلٍ سَــرْمَدِ

وَعَفَتْ أَعَاصِيرُ الهَــوَى آثَــارُهَــا
فَاسْتَبْهَمَتْ عَنْ نَاشِدٍ أَوْ مُـنْشِدِ

واسْتَوْثَقَتْ أيْدِي الغَوَايَةِ والهَــوَى
بِأَزِمَّةِ الأَلْبَــابِ ، شُلَّتْ مِنْ يَـدِ

والعِلْمُ ضَاحٍ ظِلُّهُ وَصَــدَى التُّــقَى
قَدْ صَمَّ والغَيُّ اسْتَطَالَ بِأَجْـنُـدِ

فَكَشَفْتَ جِلْبَابَ الْجَهَالَةِ عَنْ سَنَا
بَدْرٍ لِسَائِمَةِ الضَّلَالِ مُبَدِّدِ
بَلْ ضَوْءُ صُبْحٍ بَلْ نَهَارٌ نَاسِخٌ
آيَاتُهُ لَيْلَ الشُّكُوكِ الرُّبَّدِ

فأين هي الزخرفة والتحسين والتورية والتزام ما لا يلزم ؟ وأين هو التعبير التقريري الجاف مع هذا التصوير البليغ الممتع ؟ وأين هي الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية التي زعم الناقد أنها كثيرة بل أكثر من المعتاد (في الشعر الحديث) ، وما بين الهلالين هو من عندنا لأننا نظن أن الكاتب عناه ، وهو في الواقع كذلك .

أما غرابة بعض الألفاظ ، فإنها في ذلك العصر الذي ضعفت فيه اللغة وطغت عليها العامية ، تُعتبر من باب الإحياء والبعث اللغوي ، وتدل على علو طبقة الشاعر وأصالته ورسوخ قدمه في المعرفة بالأدب العربي وأسراره .

ونحمد الله على أن علماءنا شرحوا لنا روائع هذا الأدب وشوامخ منجزاته وآثاره ، من المعلقات وماإليها ، وإلا لكان جيل الشعر الحديث تنكروا لها ونبذوها واعتبروها من إفرازات العقول المتأخرة والقرائح الجامدة في العصور

السابقة ، وذلك لسبب واحد ، وهو أنهم لا يستطيعون قراءتها ، فأحرى النفوذ إلى معانيها وإدراك إبداعها وجملها .

ولعلم الأستاذ حجازي والقراء عموما ، نذكر أن اليوسي رحمه الله شرح قصيدته هذه بشرح مختصر على طريقة القدماء ، بين فيه ما استغلق من ألفاظها وما تَتَضَمَّنُهُ من أغراض ، وقد طبع هذا الشرح لأول مرة بمصر سنة 1291هـ . ●

« حالة العرب اليوم ، ضربت الرقم القياسي في الإنحطاط السياسي والإجتماعي ، ولم يسبق لهم أن كانوا في مثل هذه الوضعية التي هم عليها الآن . ! »

مراجعة الشاعر حجازي



للأستاذ الشاعر ، وترحيبا برده الذي يمتاز عن مقاله الأول بشيء من السماحة والإعتدال ، تطبيقا لما دعاني إليه في عنوان هذا الرد ، وذلك هو المنتظر من رجل فكر وأدب مثله ، كيف وقد قال الشاعر :

وأول راض خطة من
يسيرها . . ؟

وإني من هذا المنطلق ، أسجل في هذه المراجعة بعض

الملاحظات ، مما يخفى على عموم القراء في مقالي وفي رد الأستاذ ، مشيرا بادىء ذي بدء ، إلى أن وصف رئيس رابطة علماء المغرب ، الذي وضع تحت إسمي في مقالي الأول ، هو مما تفضل به أحد المحررين في إدارة جريدة الشرق الأوسط الغراء ، وليس من وضعي ، فإني لا أستظهر في هذا المقام بمثل هذا الوصف ، ولو أردت ذلك لذكرت وصفا آخر أنسب بالموضوع ، كعضوية مجمع علمي أو لغوي ، ولكن قيمة الكلام في المعاني والأفكار التي يطرحها صاحبه ، لا في ألقابه وصفاته . وعلى كل حال ، فإني أعرف جميل هذا الفاضل الذي إنما قصد من تذييل إسمي بذلك الوصف التعريف بي ، وأنشد فيه ما أنشده المعتمد لما وقع ولده عباد صريعا بأحد أزقة قرطبة ، فبقي مكشوفا إلى أن ألقى عليه أحد المارة رداء يستره :

وَلَمْ أَدْرِ مَنْ أَلْقَى عَلَيْهِ رِدَاءَهُ
وَلَكِنَّهُ قَدْ سُلَّ عَنْ مَاجِدٍ مَحْضِ

وأخرج من هذه الجزئية إلى ماجعل الأستاذ حجازي يطالبني بالإعتدال ، لأن ردي عليه لا يخلو من غضب ، وإذا كنت قد غضبت فلحرمة انْتُهكت وكرامة امتهنت ممن كان حقيقا بالحفاظ عليها ، ولو على سبيل المراعاة للزمالة

الشعرية حتى في أدنى مراتبها .فما بالك والرجل عالم مشارك في عدة فنون ، وكاتب إجتماعي بارع ، ولغوي متمكن وداعية ديني من الطراز الأول ، وهو في هذا كما وصفه أبو سالم العياشي الرحالة المشهور بقوله في بيت شعر :

مَنْ فَاتَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يُدْرِكُهُ
فَلْيَصْحَبِ الْحَسَنَ الْيُوسِيَّ يَكْفِيهِ

فالشعر هو أقل أدواته ، ومع ذلك فإنه كان يقول لو شئت أن لا أتكلم إلا شعرا لفعلت ، فيأتي الأستاذ حجازي فيقول عن شعره أنه متفاوت ، ينحط في بعضه عن المتوسط ويرتفع أحيانا ، ولو اقتصر على هذا القدر لقلنا رأي يحترم لصاحبه ، ولكنه يزيد فيقول في أول قطعة شعرية في الديوان : « إن فيها سذاجة في التصور والنظم وفيها أخطاء لغوية ونحوية » ، وقد نفينا وجود هذه الأخطاء ثم يقول : « إن المفردات في شعر اليوسي تبدو غريبة مستعارة ؟ والتعبير فيه تقريري جاف بالرغم من الزخرفة والتحسين بالجناس والتورية ولزوم ما لا يلزم ، والأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية أكثر (يعني مما ذكر سابقا) ، حيث يطيل الشاعر دون قدرة . » إن هذا ما أغضبنا يا

أستاذ إن كان هناك غضب ، فالأمر ليس كما قلتم وسنبين ذلك عند تعرضكم له .

فهذه القضية لها خلفية خطيرة ترتبط بما زعمه المستعمرون الفرنسيون أيام سيطرتهم على المغرب ، من أن العنصر البربري آري وليس بينه وبين العرب السامين آصرة نسب ، وقد كانوا يعملون على فصله عن السكان العرب ، ويفكرون حتى في تنصيره ، والمحاولة شهيرة في تاريخ الإستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا ، ومن ثم فإن نبوغ أي مواطن بربري في اللغة العربية ، كان موضع شك عندهم وتشكيك . . والمسألة ترتقي إلى عصر الفتوح الأولى، فكلنا نعلم إنكار بعض المستشرقين والمؤرخين الأجانب لخطبة طارق بن زياد في جيشه عند نزوله بإسبانيا ، بدعوى أنه بربري لا يستطيع أن يقول مثل هذه الخطبة العربية البليغة ، ونسوا أو تجاهلوا أنه عربي بالولاء أبا عن جد ، فهو طارق بن زياد بن عبد الله ونشأ في دمشق ورعاية مواليه من العرب ، فليس العجب من إتقانه للعربية بل من معرفته للبربرية إن بقي يعرفها بعد ذلك ؟ ولقد نزل الفرنسيون ببلادنا فجعلوا من الجيل الأول من يرطن بلغتهم ويكتبها أحسن من العربية ، وليس بين الفرنسية ومجريات الحياة

اليومية للمغاربة ، ما كان بين البربر والعربية من ارتباط وطيد لأول ما دخلوا في الإسلام ، فحفظوا الفاتحة وسور المفصل من القرآن لإقامة الصلاة وغير ذلك ، وهل يجهل أحد أن البربر أمدونا بأحسن مقدمة لتعليم لغتنا الضادية للعرب والعجم . وهي الآجرومية تأليف محمد بن داود ابن آجروم ، وبلغ من تقديرنا نحن العرب لهذه المقدمة ، أن أطلقنا إسمها على علم النحو ، فقلنا تعلم فلان الآجرومية أي النحو مما لم نقله في سيبويه الذي ألف لنا أعظم كتاب في نحو لغتنا ، وهو كذلك غير عربي .

إن هذه الأمور لا يفهمها الأجانب حتى ولو فهمناها لهم ، ومن المؤسف أن البعض منا يسايرهم في عدم الفهم هذا ، فمازال هناك من يطرح (مشكلة ، خطبة طارق وهو في نفسه مشكلة ، لأنه يتقن لغة راسين أو شكسبير أكثر من لغته) . وهذا كلام سقناه للعموم وليس للخواص لنفي ما قد يعلق بذهنهم من ضعف لغة اليوسي .

وقال الأستاذ حجازي إني عبت عليه عدم معرفته باليوسي ، وألححت على جهله بنسبه ، وهو لعدم شهرته لايعاب من لم يعرفه ، وذكر عدة أسماء لشعراء مصريين متأخرين غير معروفين ، وقال إنني بالمثل لا أعرفهم ولا

يعيبني أن لا أعرفهم ، وصحيح أني لا أعرف واحدا منهم ، وربما (ورب للتكثير) لم أسمع بهم ولا يضيرني ذلك ، ولكني لم أعب الأستاذ بهذا (وحاشا) ، وإنما انتقدت الحكم الذي أصدره على اليوسي وشعره ، وهو لا يعرفه ولا يحقق حتى إسمه وهو مكتوب على ظهر ديوانه ، ولو عرفه لتريث قليلا ولما سارع بإبداء رأيه فيه ، الذي أكثر ما يستند إلى أنه نشأ في عصر انحطاط ، فلا بد أن يكون منحطا ، وقلت إني لا أناقشه في شاعرية اليوسي لاختلاف النظر بيننا في ذلك ، ولكني أنظر فيما نسبه إليه من أخطاء نحوية ولغوية ، ورددت قوله فيها بالحجة ، وأنا أعتقد أن الأستاذ تساهل كثيرا فيما ينبغي أن يأخذ به قبل إصدار حكمه ، ولا أظن أن كاتبا أو باحثا يمكنه أن يدلي برأي صحيح في إنتاج أديب ما ، من غير أن يستعد لذلك بالإطلاع على ترجمته وعناصر ثقافته وأعماله الفكرية المختلفة وهي بالنسبة لليوسي كثيرة ، فأين العيب في هذا ؟

ويتعلق الأستاذ بمراجعتي له في الرأي الذي حاكم به اليوسي ، وهو كونه من شعراء عصر الإنحطاط الذي ضعفت فيه السليقة ، وشاعت الركاكة وصارت القصيدة

خزانة للمحسنات والزخارف ، فيزعم (وأنا أقتدي به في استعمال هذا اللفظ في رده) أني قلت إن أقطار المغرب لم تتعرض لهذا الإنحطاط ، وأن الأدب المغربي في العصور المتأخرة مستثنى من الحكم عليه بذلك ، وينسبني إلى عصبية محلية لها جانب إيجابي ، يتمثل في النماذج التي جلوت عنها الغبار في النبوغ المغربي ، وهذا ما أشكره عليه بالغ الشكر ، وجانب سلبي وهو (زعمي) أن عصور المغرب الأدبية كانت كلها إزدهار في إزدهار ؟

فهل أرجع إلى القول أن الأستاذلا يتصفح الكلام ويتعمقه ، فأنا إنما ناقشته في هذا الرأي الذي يطلقه مؤرخو الأدب العربي فيما يسمونه بعصور الإنحطاط ، فيجعلونها خالية من أي إبداع ، ويسمون الإنتاج الأدبي فيها بسمات الضعف والغثاثة والتصنع ، من غير تحفظ ولا استثناء ، ونص ما قلته بالحرف : « وهذا حكم لا يصح إطلاقه على كل من عاش العصر المذكور ، فكم من النوابغ ظهروا في عصور الإنحطاط وما يزال التاريخ لم ينصفهم ، ولم تخضع البلاد العربية كلها في وقت لهذا الحكم الجائر ، فهناك استثناءات لابد من مراعاتها » . فواضح أن كلامي على البلاد العربية كلها وليس على المغرب ،

وهو رأي طالما رددته في كتاباتي ، وضربت عليه بعض الأمثلة مما نشرته في مجلات المشرق قبل المغرب ، وما أشرت إليه من إيجابيات الأدب المغربي التي زكاها الأستاذ ، وزكاها قبله طه حسين ، وشكيب أرسلان وبروكلمان وغيرهم ، هو بعض هذا الأدب وليس كله مما جعله الأستاذ خلفية سلبية (لعصبيتي المحلية ، تتمثل في زعمي) أن عصور المغرب الأدبية كلها ازدهار في ازدهار ؟ ومطية الكذب زعموا ، كما يقولون ، فأنا لم أقل شيئا من هذا ، وعليه فلم أكذب على نفسي ولا على الناس ، فيبقى هذا الزعم معلقا في الفضاء حتى تخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق .

والذي لا أقبله من الأستاذ ، هو أن يصمني بهذه العصبية المحلية ، فلم أكن قط ولن أكون إن شاء الله على هذه العصبية في عمل من أعمالي الأدبية ، وقد كتبت عن المشرق كما كتبت عن المغرب ، وعرفت أهلنا في المغرب بكثير من الشخصيات الشرقية وإنتاجها الفكري ، وإذا كانت لي كتب خاصة بأدب المغرب ، فإن لي أخرى أكثر ما تتناول الأدب العربي بعامة ، ومنها سلسلة بحثي (التعاشيب) و (واحة الفكر) و (خل وبقل)

و (العصف والريحان) و (أزهار برية) وغيرها ، وفي المؤتمر الثالث لأدباء العرب الذي انعقد في القاهرة سنة 1957 ، كان خطابي في موضوع وحدة الأدب العربي ونقد النظرية الإقليمية لهذا الأدب ، ولا تتصور العصبية المحلية مع هذا الإتجاه ، الذي ما يزال هو اتجاهي ولاتأتي الأيام إلا بما يؤيده .

وأراد الأستاذ حجازي أن يستدل على أن عصر اليوسي كان عصر انحطاط ، فيجب أن يكون شعره وأدبه على العموم منحطا ـ وهذه هي المعادلة التي قلنا للأستاذ أنها لا تصح بإطلاق وفي كل وقت ، في البلاد العربية كلها ، فأنشد بعض الأبيات من الدالية التي سقناها دليلا على قوة عارضة اليوسي ، وهو يمدح فيها ا لشيخ ابن ناصر ويقول واصفا ما كان عليه الحال لما قام بدعوته :

وافيْتَ والبِدَعُ الحَوادِثُ قَدْ دَجَتْ
ظُلُماتُها والجَهْلُ وارِي الأزْنُدِ
والسُّنَّةُ الغَرَّاءُ قَفْرٌ مُوحِشٌ
مَا فيهِ مِنْ هَادٍ ولَا مِنْ مُهْتَدِ
نَشِبَتْ بِضَبْعَيْهَا مَخَالِبُ ضَيْغَمٍ
مِنْ مَألَفِ العَادَاتِ عَادٍ مُخْرِدِ

وَمَحَا الْمُحَاقُ بُدُورَهَا فَتَكَنَّفَتْ
مُقَلُ النُّهَى ظَلْمَاءُ لَيْلٍ سَرْمَدِي
وَاسْتَوْثَقَتْ أَيْدِي الْغَوَايَةِ وَالْهَوَى
بِأَزِمَّةِ الأَلْبَابِ شُلَّتْ مِنْ يَدِي

بضم ياء يدي جمع يد بفتحها .

وعلق عليها بقوله « هذا هو عمر اليوسي في شهادته ، فهل يقال عن عصور الإنحطاط أكثر من أنها ليل سرمدي ؟ ونقول للأستاذ : مهلا إن الشاعر يصف تدهور الحياة الدينية التي كان عليها القوم وليس الإنحطاط بمعناه العام ، على أنه جاء بعد بما يفيد أن الشيخ قد جلا بدعوته ذلك الظلام حين قال بعد أبيات :

فَكَشَفْتَ جِلْبَابَ الْجَهَالَةِ عَنْ سَنَا
بَدْرٍ لِسَائِمَةِ الضَّلَالِ مُبَدِّدُ
بل ضوء صبح بل نهار ناسخ
آيَاتُهُ لَيْلُ الشُّكُوكِ الـزُّرَّدِ

فوصف أيضا ببلاغته الفائقة ، ما آلت إليه الحياة الدينية والعلمية من إشراق وازدهار في أبيات عديدة . .

وهنا نستنتج من معادلة الأستاذ ، أنه إذا كان تخلف الحياة الأدبية ضربة لازب لتخلف الحياة الدينية وانحطاط العصر

على وجه العموم ، فإن حالة العرب اليوم ضربت الرقم القياسي في الإنحطاط السياسي والإجتماعي ولم يسبق لهم أن كانوا في مثل الوضعية التي هم عليها الآن ، فما قوله في هذا الأدب والشعر الحديث على الخصوص . إن حكمنا ميزانه ألا يكون أحط أدب وأحط شعر عرفه العرب ، ولذلك اختفى الأدب الرفيع والشعر الذي يقال له شعر ، حتى مرض الذوق وصار لا يستسيغ العذب الزلال . لكنا كما قدمنا لا نحكم تلك المقولة ولا نلزم الأستاذ بنتيجتها هذه ، علما بأن لازم المذهب ليس بمذهب ، فالأمر لا يعدو أن يكون مزحة لأن معالجة قضايا الأدب والشعر ليست بهذا القدر من السهولة .

ثم تطرق الأستاذ للأخطاء اللغوية والنحوية التي نسبها لشعر اليوسي ، محاولا تصحيح رأيه فأتى بنقل من كتاب النحو الوافي لعباس حسن ، فإذا به يؤيد ما قلناه فيها ، ولكنه أخذ يتفلسف بما لا طائل تحته ، ولذلك لن نعيد مناقشته فيها ، وإذا كان لم يفهم ما قلناه في أذنت بالحبيب اللقاء فليجعله على حد قولهم خرق الثوب المسمار ، أما الرحم فلم ننكر عليه استثقاله لسكون عينها مع كسر الراء ، وإنما أنكرنا عليه قوله أنها ضرورة وهي لغة لا

ضرورة ، وذوق الأستاذ له اعتباره وليس لنا حق إنكاره عليه ، إلا أن يخالف المتعارف ، ورحم الله الأستاذ عباس حسن ، فلو أنه كان حيا وسمع ما نصحح به الأخطاء المزعومة لأقام الدنيا ولم يقعدها ، كما كان يفعل في مؤتمر مجمع اللغة العربية لما يتسور أحدهم على القواعد والنصوص ، وليتوكأ الأستاذ علينا أنكر أن يكون قال على « رحم » اليوسي إلا أنها ثقيلة ، فأنكرنا عليه استثقالها إذ ينبغي في نظره أن يكون اليوسي منزها على الخطأ ، وياسبحان الله ، أنقول كما جاء في المثل « رمتني بدائها وانسلت » ؟ فهذا لفظه بلا تبديل ولا تغيير : ثم إن (الإضطرار) إلى تسكين الحاء من رحم ثقيل جدا ، فهل كان علينا أن نحمل اليوسي أخطاء الأستاذ وننزهه هو من كل خطأ .

وبالإشارة إلى ما قلناه عقب الأبيات التي قدمناها من دالية اليوسي ، مثالا على بلاغته وقوة عارضته : فأين هي الزخارف والتحسين والتورية والتزام ما لايلزم ؟ أجهد الأستاذ نفسه فتحمل الديوان ، ليستخرج نماذج من الأبيات التي وقعت فيها هذه المحسنات ، فيقول لنا ها هو الجواب حاضرا ، فأتى بأربعة أمثلة مما ارتكب اليوسي فيه الجناس ،

ومثالين مما ارتكب فيه التورية بذكره ، وهما ليستا من التورية في شيء ، ونحن حين قلنا فأين الزخارف والتحسين إنما عيننا المثال الذي أعطيناه من الدالية ، ولم ننف وجود المحسنات البديعية في شعر اليوسي بإطلاق واستعماله لها في بعض الأحيان ، وذلك مما تضمنته العبارة الواقعة قبل المثال الذي أعطيناه من الدالية ، ونحن نرد على قوله إن شعر عصر الإنحطاط صار خزانة للمحسنات ، ونستثني من لم يستكرهها ولم يستعملها من الشعراء إلا نادرا . . كيف وهي لم يسلم منها شاعر متقدم ولا متأخر ، ومن أشعار القدماء استخرجها ابن المعتز وغيره ، والقرآن الكريم نفسه قد وردت فيه ، ومما يمثل لها بآياته قوله في الجناس (قال إني لعملكم من القالين) وقوله (وهم ينهون عنه وينأون عنه) .

ويضيف الأستاذ إلى هذا قوله : إن لليوسي أخطاء أفدح كثيرا مما ذكرت في مقالتي الأولى ، وحين يعطي المثال على هذه الأخطاء ، يقع الأستاذ وقعة تمنينا معها أن لو كان أنهى رده قبل هذا الكلام ، والمثال من قطعة :

إِنْ بَيْنَ الغَمَامِ وَ الزَّهْرِ الغَضّ
لَرَحِمًا قَدِيمَةً وَ إِخَاءَ

التي دار حولها نقاش كثير ، وقافيتها على ما علمنا همزة مفتوحة ، فيورد سيادته منها هذا البيت في وصف الزهر :

ثَمِلاً مِنْ شُمُوسِ شَمْسِ الضُّحَى وَ هـ
وَ عَلَى بُسْـطِ سُنْـدُسٍ خَضْـراءَ

ويقـول إثره : « فـالبـيت ينتـهي بهـمـزة مكسـورة مع أن القافية في سائر أبيات القصيدة همزة مفتوحة ، وهذا خطأ يسمـيه العـرب إقـواء » ، فهل جهل الأستـاذ أن خضـراء وصف ممنوع من الصـرف وهـو يجـر بالفـتـحـة نيـابة عن الكسـرة ؟ لا نظن ذلك وإنما هو سـهـو عـرض لـه مع حرصـه على تلمس أخطاء اليوسي ، وتعست العجلة .

ثم يزيد الأستـاذ فـيـورد بيـتـا هو مطلع قـصـيـدة داليـة لليوسي من بحر المنسرح ولفظه كما أورده :

صَبَـا فُـؤَادِي إِلَى صَبَـا نَجْـدِ
وَمِنْ تَزَايُدِ هَـا زَكَى وَجْـدِي

ويقـول : وفي هذا البـيت خطأ عـروضي أو خطآن ، فـالشطر الأول من بحـر المنسـرح والشطـر الآخـر من سـريع مـخـتـل ، فـالتـفـعـلـة الثـانيـة « يدمـازكى » توزن على متفاعلي وحقها أن توزن على مستفعلي ، وهذا غير صحيح فـإن الشطر الثـاني هو كـالأول من المنسـرح وقـد دخله الخبل

وهو إجماع الخبن والطي ، والتفعلة الثانية فيه مفعولات حذف ساكنها الأول وساكنها الرابع فصارت معلات فنقلت إلى فعلات ، وقراءة الأستاذ للتفعلة خاطئة فهي بها ، بدل الميم وصحتها مع ما قبلها لتمام الكلمة (تزايدها) .

ويختم الأستاذ رده باتهامي إلى الإتهامات السابقة ، بأن حملتي عليه إنما ترجع لإنكاري لحركة التجديد الشعرية ودوره فيها ، فصارت القضية شخصية في نظر الأستاذ ، وإذا كان نقدي لما قاله في ديوان اليوسي حملة عليه في نظره ، فماذا يقال في حملاته علي في رده هذا الذي أراجعه ، ولا أقول أرد عليه ، وليطمئن الأستاذ أن رأيي في حركة التجديد الشعرية ليس كما ظن ، وأن دوره فيها قد عبرت عنه بتقدير خلال مقالي الأول وأؤكده الآن ، ويكفي أن تكون لي محاولات في الشعر الحر بعضها منشور في ديواني الصغيرين (لوحات شعرية) و(إيقاعات الهموم) لنفي ما ظنه ، وأخيرا أوآخرا قال الأستاذ في مداعبة محببة إلى أني دعوت إلى ما أنكره على المجددين الآن في تطرف ، وهو إنكار الوزن مما لم يقل به أحد ، ويسعدني أن يروي أبياتا لي من قصيدة نشرت قبل نصف قرن ، ويسرني أن أبين له أني في هذه القصيدة لم أنكر

الوزن ، وإنما أنكرت على الذين يظنون أن الشعر هو الوزن خاصة ، وكان عندنا شعراء متضلعون في العروض والنظم ، ولكن شعرهم خال من المحتوى الشعري الذي عبرت عنه بعد تلك الأبيات التي أندد فيها بالوزن أو الشكل كما نعبر الآن مع تفاهة المضمون ، وذلك بقولي بعدها مباشرة :

وَمَا الشِّعْرُ إِلَّا حَدِيثُ النُّفُوس
وَسَجْعُ الْحَمَامِ عَلَى الْقُضُبِ
وَنَوْحٌ لِإِفْهَامِ مَغْزَى الْحَيَاة
عَلَى أَلْسُنِ الشُّعَرَاءِ النُّجُبِ

. . . ومعلوم أنه في ذلك التاريخ ، لم تكن حركة التجديد في الشعر قد ظهرت ، حتى أكون فيها معتدلا أو متطرفا ، أما قول الأستاذ إن ترك الوزن تطرف لم يقل به أحد ، فهو عجيب منه ، وماذا تعني القصيدة النثر أو النثر الشعر أو ما لا أدري من الأسماء (للشعر) الذي لا وزن له ، وكنت أريد أن أتبسط قليلا فيما أخذه علي من إسم الشعر الأصيل وما فهمه من ذلك ، ولكني عدلت عن غير النقط الموضوعية من الرد وخير الكلام ما قل ودل . ●

«لايكاد الكتاب اليوم، يستعملون في جمع وادٍ إلاَّ صيغة وديان،
وهي صيغة لا قياسية، ولا واردة عن العرب.»

المعجم الوسيط

في المعجم الوسيط مايلي : « شجب الشيء يشجب شجوبا هلك ، وفلان حزن ، والغراب شجيب انعق بالبين وفلانا شجبا أهلكه ، ويقال شجب الصيد رماه بسهم ، فأصابه وأعجزه عن الحراك ، وفلانا أحزنه والشيء فلا ناشغله والشيء جذبه ، يقال شجب اللجام ، وشجبه عن حاجته وشجب القارورة بالشجاب شدها . . الخ .

وهذه المعاني التي ذكرها المعجم الوسيط ، لشجب وما

تصرف منه هي بعينها الواردة في القاموس ، وغيره من معاجم اللغة . . ولعلنا نلاحظ أن المعنى الوحيد الذي يستعمل في هذا الفعل بكثرة اليوم ، لم يرد في المعاجم ، وهو شجب بمعنى : انتقد وندد ، يقال : شجب الخطة أو السياسة الفلانية ، يشجبها شجبا أي انتقدها وندد بها وهاجمها وحمل عليها . . وهذا كثيرا ما يرد في الصحف اليومية ، معبرا عن المواقف المضادة التي يقفها مندوبو بعض الدول ، في المنظمات السياسية ، من سلوك بعض الساسة والحكومات في دول أخرى . وظاهر أن معنى هلك وأهلك وحزن وأحزن ، غير موافق للمعنى المراد هنا ، اللهم إلا أن يستعار له معنى رمى الصيد الوارد لذلك الفعل ، وحينئذ فينبغي النص عليه في المعاجم اللغوية الجديدة ، والأوجب (شجبه) أي هلاكه ، فعندنا ما يغني عنه مما ذكرناه كندد به وهاجمه وما إلى ذلك .

وديان

لا يكاد الكتاب اليوم ، يستعملون في جمع واد، إلا هذه الصيغة أعني صيغة وديان ، وهي صيغة لا قياسية ولا واردة عن العرب في جمع هذا المفرد . . فجموعه التي ذكرتها المعاجم ثلاثة هي أوداء وأودية وأوداية ، ويمكن أن يزاد عليها أوداه بقلب الهمزة هاء في أوداء ، وهي لغة

طيء ، وصحف بعضهم الجمع الأخير ، وهو أوداية إلى أوادية وأنشد عليه : وأقطع الأبحر والأوادية ، لكن ابن سيده نبه على هذا التصحيف ، وقال إن صوابه والاوداية بدليل ما قبله ، وهو قوله : أما تريني رجلا دِعْكَاية .

فنحن أولاء نرى أن ليس بين هذه الجموع المنصوصة وديان .

وأما القياس ، فقد أشار ابن مالك في الكافية ، إلى ما يجمع على فعلان بقوله :

فِعْلان لاسم كفُعال [1] وفُعَل [2]
وفُعْل [3] الواو عيْناً وفَعَل [4]
وفي فَعال [5] وفِعال [6] قد يرد
كذا فَعِيل [7] وفَعول [8] قد وجد
في فاعِل [9] وفِعلة [10] وفِعْل [11]
وفُعْلَة [12] فَعَلة [13] وفَعْل [14]
في فَعَلان [15] وفِعِلّ [16] قد نُقِل
والثاني نادر ولكن احتمل

---

(1) نحو غلام وغلمان (2) كصَرد وصردان (3) مفتوح الفاء ومضموها كتاج وتيجان وعود وعيدان (4) كخرَب وخربان (5) كغزال وغزلان (6) كصِوار وصيران (7) كظليم وظلمان (8) كخَروف وخرفان (9) كحائط وحيطان (10) كِنسْوة ونسوان (11) كقِنْو وقنوان (12) كبُرْكة وبِرْكان (13) كقَضفَة وقضفان (14) كضيْف وضيفان (15) نحو كَرَوان وكِرْوان (16) كضِفَن وضفنان .

وهي ستة عشر وزنا ، ليس فيه وزن واد كما نرى ، فماذا إذن ؟

لا شك ، أن هذا الجمع غلطة ، ولعله كان قياسا من قائله الأول ، على مفردات الوزن الثالث ، لنار ونيران ، وغار وغيران ، وتاج وتيجان ، وجار وجيران ، ولكن هذه ثلاثية صحيحة اللام بخلاف واد .

أما سر انتشاره ، فيرجع فيما أظن إلى الترجمة ، لأن المعجم الوحيد الذي أثبته ، هو معجم الأدب بيلو الفرنسي العربي ، وقد أثبته في هذا المعجم بين قوسين ، إشارة إلى الحفظ بشأنه ، ولكنه في الفرائد الدرية ، الذي هو النسخة العربية الفرنسية من هذا المعجم ، حذف القوسين ، فبقي وديان ، على قدم المساواة مع الجموع الصحيحة ، فاعتمده التراجمة وسار هذه السيرورة التي غطت على غيره .

تحاشَد النَّاسُ

هذا تعبير ورد في المدارك للقاضي عياض ، عما نقول فيه اليوم ، تظاهر الناس ، وأنا لم أورده هنا إلا لتسجيل الدلالة التاريخية التي مر بها ، للإنتفاع بذلك في المعجم التاريخي للغتنا الضادية ، الذي ينوي المجمع اللغوي وضعه في المستقبل القريب ، أعانه الله على ذلك .

قد تعرض القاضي رحمه الله لمحنة الفقهاء فقال : « إن الوالي ضربه وحبسه ، فتحاشد الناس ، وكان بعضهم يقع عليه ليقيه بنفسه . . » «وأخرج إليهم الأجناد ففضّوهم » ، فتحاشد هنا قد استُعمل في تمام المعنى الذي نستعمل نحن فيه اليوم تظاهر . . وأما فضّوهم ، فيغلب أن نقول بدله فرقوهم ، ولكنه مستعمل أيضا .

التكميد

وهذا لفظ آخر من واد ما قبله . . وقفتُ عليه في كتاب أجوبة فقهية ، للقاضي عبد الوهاب ، ضمن مجموع في المكتبة الوطنية ، بمدريد يحمل رقم 4950 ، وقد تعرض فيه لضمان الصُّنَّاع والكَمَّاد بالخصوص . . وأطلق التكميد على ما نسميه اليوم بكيّ الثياب ، وهو تعبير إخواننا في المشرق ، أو تحديدها ، وهو تعبيرنا في المغرب ، وأطلق الكمّاد على المِكْوَجي ، وكنتُ أحسب أن الكمّاد فيما أتى من أسماء بعض أهل العلم ، يرجع إلى الكمد والحزن ، فإذا به يرجع إلى هذه الصناعة ، ولذلك سجلتُ هذه الفائدة ، وهي أيضا من الدلالة التاريخية للألفاظ . ●

« يوسف الثالث ، لم يكن آخر ملوك غرناطة . ! »

تصويبات

وقع في الجزء الأول ، من المجلد الخامس ، من مجلة مجمعنا اللغوي بدمشق ، بعض أخطاء في أسماء المؤلفين وكتبهم ، وما يتعلق بذلك ، من أماكن ونحوها . وهي وإن كانت أخطاء قليلة ، وليست ذات أهمية كبيرة ، إلا أن هذه المجلة ، التي أصبحت مرجعا أساسيا في هذه المادة من البحوث العربية ، تقتضي مزيدا من التحقيق ، والتحرير، فلذلك ، أقدم إليها هذه التصويبات ، التي أرجو أن تكون مفيدة ، لمن يهمهم هذا الأمر .

ففي (ص 19) ذكر شرح الشاطبية لابن القاصح بالنون ، وهو بالقاف ، ووصف المكودي شارح الألفية بالمطريزي ، وهو وصف لا يعرف لهذا المؤلف .

وفي (ص 82) وقع ذكر المظفر ابن الأفطس ، وهو من ملوك الطوائف ، وكتابه المظفري ، بالضاد وكلاهما بالظاء المشالة .

وفي صفحتي (84 و 98) ذكر أسرة ابن (الصغير) ، أو الصغيرة ، الذي أصبح يتولى الإشراف على خزانة الكتب عند الموحدين . وهو ابن الصقر بالقاف ، لا الصغير ، وتردد ذكر إسم الأروشي ، في صفحتي (83 و85) مرة هكذا بالهمزة ، ومرتين بالعين هكذا : العروشي ، والصواب الأول .

وفي (ص 87) ورد إسم أبي علي الصدفي ، بالواو هكذا الصوفي ، وهو خطأ يمكن أن يكون من الطبع .

وفي صفحتي (89 و 91) تحرف إسم ابن لب ، إلى لوب بالواو ، وهو خطأ وفي (ص 93) وصف العلامة عبد الرحمان بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عيسى الأزدي ، المعروف بابن رقية من أسرة بني الملجوم الفاسية بالأهواني ، ولا يعرف هذا الوصف في ترجمته ، وإنما هو الزهراني ، فلعله تصحف في الترجمة ، إذ أن أصل هذا المقال بالإسبانية ، وفي

(ص 98) وردت هذه العبارة « لولا أنها ترجمت إلى اللاتينية ، أو العربية ، على أيدي اليهود » وظاهر من السياق أنها العبرية لا العربية ، ولعله خطأ مطبعي ، وفي (ص 106) ذكر أسماء لمدن أندلسية ومغربية ، ومنها سبتة التي وردت هناك هكذا نسبتة بالنون خطأ .

وفي (ص 131) ذكر اسم ابن حبوس الشاعر الفاسي المعروف ، مضبوطا بتخفيف الباء ، وعلق عليه الأستاذ صاحب المقال ، بأنه كذلك ضبط في الأصل ، وأنه في ترجمته الواردة في كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب ، ضبط بتشديد الباء ، والصواب تخفيف الباء ، نص عليه ابن خلكان ، في ترجمة ابن حبوس الشاعر الدمشقي .

وفي هذه الصفحة أيضا ، ورد إسم الشاعر أبي العباس الجراوي ، بالحاء بدل الجيم ، والغريب أنه على كثرة ما وقع في إسم هذا الشاعر من التحريف ، كما أشرنا لذلك في ترجمته ، (الحلقة الخامسة من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب) ، فإن أحدا لم يصحفه هذا التصحيف بالحاء .

وفي (ص 168) ورد إسم أبي عبيد القاسم بن سلام ، هكذا ، ابن عبيد ، وهو خطأ .

وفي (ص 169) ورد إسم ابن شرف هكذا ، أبو شرف ، وهو خطأ .

وفي (ص 175) ورد إسم الحوات ، الحواز بالزاي بدل التاء خطأ ، وتصحف إسم الفشتالي ، وهو كاتب المنصور السعدي ، ووزيره المعروف إلى الفشالي .

وفي (ص 176) ورد إسم كتاب مستودع العلامة لابن الأحمر هكذا ، مستودع العالم وهو خطأ . والمراد بالعلامة ما يشبه الطغراء ، وكان لها عند ملوك بني مرين ، كاتب خاص .

وفي الصفحة نفسها ، ورد ما يلي : « مجموع إضاءة الأدمس ، لابن العباس الهلالي » ، ولعل المراد مجموع إضاءة الأدمس ، وهو كتاب صغير ، لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي ، وضعه في بيان اصطلاح القاموس للفيروزبادي ، فصواب إسم المؤلف : أبو العباس ، لا ابن العباس .

وفي (ص 177) زهرة الشماريخ لابن زيد الفاسي وهو أبوزيد ، وفيها لفظ أبو الفرائد لابن القاضي ، وهو لقط الفرائض ، بالقاف ، وفيها قضية البلديين من أهل فاس للزباني ، وهو الزياني بفتح الزاي ، واشمامها بالصاد ، مع

تخفيف الياء ، وانظر الحلقة الثانية من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب .

وفيها النفحة العاطرة الأنفاس ، في الرحلة الخمارية لحاضرة فاس ، (الخمارية أسرة في طنجة حتى اليوم) ، والصواب ، الخمالية باللام ، والأسرة التي في طنجة حتى اليوم ، هي أسرة الخمال ، وهذه الرحلة ليست بعيدة العهد ، بل هي قريبة منا جدا ، كتبت لبعض الأفراد من هذه الأسرة في رحلة عادية له ، من طنجة إلى فاس .

وفي (ص 182) ما يلي : « نسخة في الرق من الموطأ الحديث » ، والتعبير قلق كما لا يخفى ، فقد يوهم أن هناك موطأ حديثا ، غير الموطأ القديم ، فالصواب حذف لفظ الحديث .

وفي (ص 185) صُحِّفَ كل من إسم أبي الحسين بن أبي الربيع ، وأبي المطرف بن عميرة إلى ابن الحسين ، وابن المطرف .

وفي (ص 186) صحف إسم ابي العباس السبتي صاحب كتاب الدر المنظم في مولد الرسول المعظم ، إلى ابن العباس وهو أبو العباس العزفي السبتي ، فالصواب ذكره لنسبه ، لئلا يختلط بابن العباس السبتي الولي الشهير .

وفي (ص 188) مطالع الأنوار لابن قرقوان ، وهو ابن قرقول ، وفيها : « وقف المسجد الجامع داخل قضية مراكش » ، وصوابها قصبة .

وفي (ص 190) وصف الجلاوي بأنه رئيس وزراء المغرب ، في عهد الحماية ، ولم يكن الجلاوي رئيسا للوزراء قط ، ولا حتى وزيرا غير رئيسي ، وإنما كان حاكما لمدينة مراكش ، والحاكم يعبر عنه في المغرب بالباشا ، فيقال : باشا فاس ، أو طنجة ، أو الدار البيضاء ، بمعنى حاكم إحدى هذه المدن .

وفي (ص 203) ورد ما يلي : « ديوان آخر ملوك غرناطة ، يوسف الثالث » ، ولم يكن هذا الملك آخر ملوك غرناطة ، بل هو السلطان أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن ، وهو العشرون من ملوك بني الأحمر ، على حين أن صاحبنا يوسف الثالث ، كان هو الثالث عشر منهم . ●

« المؤرخون سامحـــهم الله ، لم يعنـــهم أن يذكروا إسم أبيـــها وأمها . ! »

بنت حصين الطائية

في العدد السابع والعشرين من مجلة العربي الغراء ، مقالا تحت عنوان : نساء مغمورات عن سعدى أم أوس بن حارثة بن لام للسيدة الدكتورة بنت الشاطئ ، وهو مقال ممتع جمع بين القصة والتاريخ لهذه العربية النجيبة المنجبة ، ويكفي أن تكون بنت الشاطئ هي التي كتبته بقلمها الندي ، معبرة عن إعجابها بشخصية سعدى لنعجب نحن بهذا المقال :

وقد جاء في طالعة المقال هذه العبارة : « وهذه مغمورة

أخرى إسمها سعدى ، بنت من ؟ لا أدري فإن المؤرخين سامحهم الله ، لم يعنهم أن يذكروا إسم أبيها وأمها ، أو ظروف نشأتها وقصة حياتها ، ولولا أن سجل الشعر العربي القديم إسمها مقرونا بإسم ولدها الذي أنجبته ، لما أغفلت لنا عنها أي خبر » وتعقيبا على ذلك ، أذكر أن إسم والد سعدى معروف وهو حصن أو حصين ، وكان من سادات طيء ، وقد ذكره ابن الشجري في مختاراته ، والألوسي في بلوغ الأرب ، وكلاهما أشار إلى منبتها الرفيع وبيتها الشريف ، وتوسع بعض المؤلفين في رواية قصتها مع إبنها أوس ، لما أخبرها بظفره بالشاعر بشر بن أبي حازم الأسدي الذي هجاه وإياها ، وعزمه على قتله وما قالته له في ذلك حتى صرفته عن رأيه ، وحملته على إطلاق سراح الشاعر والبر به ، ومن هؤلاء المؤلفين عبد القادر البغدادي ، في كتابه خزانة الأدب ، فيرى القارئ أن المؤرخين - سامحهم الله على كل حال - لم يكونوا كلهم ممن لم يعنهم أمر سعدى وأهملوا ذكر إسم أبيها وأمها ، نعم بقي إسم أمها ، وبعيد العثور عليه لأنهم قلما يعنون بذكر أمهات الأشخاص وأسمائهن ، ولكن من يبحث يجد . ●

« هذه المجمـوعة من المناقـشات والتـعقيـبات والتذيـيلات التي جمـعناها في هذا الكتاب ، تبين عمق الفـقه اللغوي عند عــبد الله كنون. »

عبد الله كَنون قيمة علمية

بقلم : عبد الصمد العشاب *



ونحن نبحث في كتب التراث وتراجم الأعلام أن نقرأ هذه العبارة :

« ... فلان عالم أديب ، وفقيه متضلع ومفسر ومحدث له مشاركة في الطب والفلك ... الخ »

إن هذه العبارة ، إن كانت تحمل بالنسبة لبعض الأعلام صفة المبالغة أو المجاملة الخارجة عن الحد ، فإنها بالنسبة لبعض الأعلام المتميزين ، تكون

* مدير مكتبة عبد الله كنون

صادقة إلى أقصى حد . ويسمونها " المشاركة"
أي أن ذلك الشخص بارع في كثيرمن
العلوم .

بالنسبة للأستاذ عبد الله كَنون كان عالما
مشاركا ، توزع اهتمامه بتركيز قوي في المحاور
التالية :

أ- الدراسات التارخية و الأدبية وخصوصا عن
المغرب والأندلس .

ب- الدراسات الإسلامية .

ج- الدراسات اللغوية وتحقيق الأسماء
والأنساب .

واستفرغ جهده العلمي في هذه المحاور، دون أن
يهمل رياض القريض الذي نبغ فيه منذ حداثته ،
فقد كان كَنون شاعرا ، واستثمر شعره في قضايا
وطنية وإنسانية ، وصدرت له ثلاثة دواوين تبلور
منهجه الشعري (لوحات شعرية - إيقاعات
الهموم- صنوان وغير صنوان)

وفي باقي الدراسات الإسلامية والأدبية وتحقيق
المخطوطات ، صدرت له كتب عديدة يعتبر بعضها
مراجع أساسية للباحثين .

على أن نشاط الأستاذ كَنون لم يكن منحصرا
في هذا المجال فقط ، فهو في ميدان السياسة

والحركة الوطنية والأعمال الإجتماعية ، كان قدوة فاعلة ، وذا تأثير في كثيرمن المواقف ، يحدوه الصالح العام وحب الوطن . وهذه مجالات يطول الحديث عنها ، ولكننا نقتصر على موضوع هذا الكتاب فنقول :

إن هذه المجموعة من المناقشات والتعقيبات والتذييلات التي جمعناها في هذا الكتاب ، تبين عمق الفقه اللغوي عند عبد الله كَنون ، ودقة البحث الذي يتقصى الحقيقة في مظانها ، ويرد الأمور إلى حقائقها في لطف تعبير . واستئناس ومؤانسة .

لقد نشرت جل هذه التحقيقات في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . وكان الأستاد كَنون عضوا فيه وفي غيره من المجامع اللغوية العربية الأخرى . ولكن المطلعين على المجلة وأعمال المجامع اللغوية في الوطن العربي ، هم قلة قليلة لا تتعدى أعضاء المجامع ، وبعض المهتمين من العلماء . ويبقى كَمٌّ عريض من المثقفين والمهتمين في المغرب والعالم العربي والإسلامي في شبه جهل تام بما راج ويروج في تلك المجامع .

لهذا السبب طمحت همة أخينا الأستاذ خالد مشبال صاحب (وكالة شراع من أجل تكوين مجتمع قارئ) ، إلى بعث هذه السجلات من

مرقدها في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، ونشرها من جديد لتعم بها ثقافة لغوية وتاريخية وأدبية ، كانت ستبقى كغيرها في طي النسيان.

فلما عرض الأستاذ مشبال إقتراحه على جمعية مكتبة عبد الله كَنون بطنجة ، استجابت في الحين ، شأنها مع كل مشروع ثقافي يهدف إلى نشر العلم وإشاعته بين الناس . وجدفت مع مشبال في قارب شراع ، الذي تسير به ريح رخاء .

تمنياتنا لوكالة شراع ، بمزيد التوفيق وإلى الأمام ... ●

ع.ع

محتويات الكتاب :

صفحة

● شعارنا الثقافي والإعلامي في محيط العمل والأسرة : «من أجل مجتمع مغربي قارئ».

● الأعداد السابقة من «سلسلة شراع»، توجد تحت الطلب بوكالة شراع لخدمات الإعلام والإتصال : (137 شارع ولي العهد ـ طنجة).

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم … وصلى الله على سيد المرسلين

من وثائق مكتبة عبد الله كنون

● « … في كتب **الأستاذ كنون** أكثر من علامة واحدة من علامات الطمأنينة والأمل ، ففيها أدلة كثيرة على اتصال النهضة المغربية حيث ينبغي أن تتصل بالماضي وبالحاضر ؛ فيها عناية بإحياء الذكريات الماضية والأعلام المنسية ، وفيها عناية بمتابعة النهضات العربية الحاضرة في البلاد الأخرى ولاسيما المصرية . وقد نقد **الأستاذ كنون** كتبا مختلفة للأدباء المصريين نذكر منها على سبيل المثال نقده لكتاب «تاريخ حياة معدة» للكاتب الموهوب **الأستاذ توفيق الحكيم**. »

● « … ولم يختم **الأستاذ كنون** نقده حتى أعطى الغيرة على الفصحى حقها ، فأحصى على **الأستاذ الحكيم** هفوات في الإعراب يعجبنا ألا يسكت الناقدون عنها وعن نظائرها في كل كتاب » .

● « … أمثلة متفرقة ، نراها كافية للدلالة على نصيب الفهم والعلم باللغة من كتابات المدرسة الأدبية التي يمثلها **الأستاذ عبد الله كنون** . »

عباس محمود العقاد